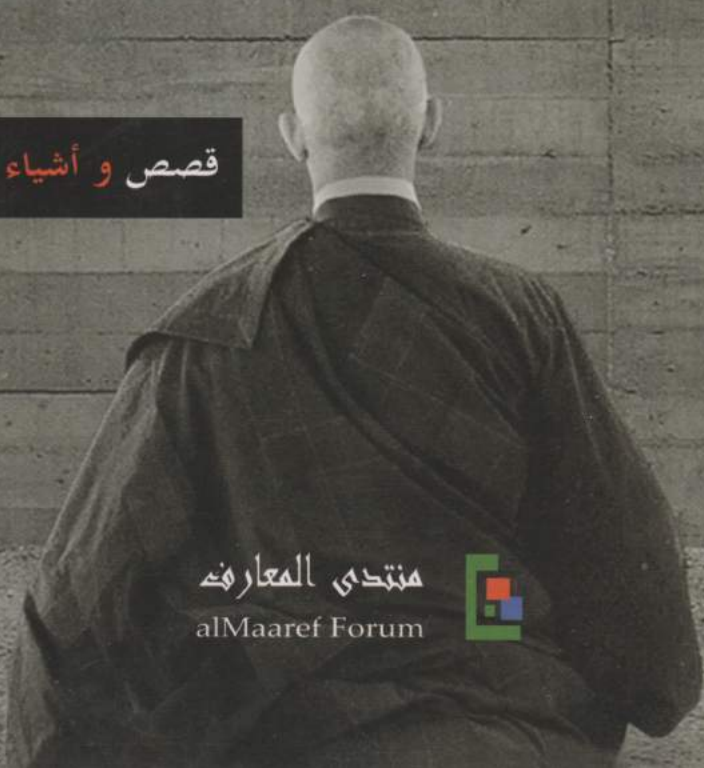
ذاكرة عشوائية

جميل الرويلي

قصص و أشياء أخرى ..!



منتدى المعارف
alMaaref Forum

ذاكرة عشوائية!

قصص وأشياء أخرى..!

جميل الرويلي

ذاكرة عشوائية!

قصص وأشياء أخرى..!

منتدى المعارف
alMaaref Forum

«جميع الشخصيات الواردة في هذه الرواية هي من نسج الخيال ولا تمتّ إلى الواقع بصلة، وأي تشابه في الأسماء أو الأحداث هو مصادفة ليس إلا. كم إن الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر منتدى المعارف»

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٤

ISBN 978-614-428-076-8

للتواصل مع المؤلف: ibn.sabeeh@gmail.com

منتدى المعارف

بناية «طبارة» ـ شارع نجيب العرداتي ـ المنارة ـ رأس بيروت
ص.ب: ٧٤٩٤ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت ٢٠٣٠ ١١٠٣ ـ لبنان
بريد الكتروني: info@almaarefforum.com.lb

المحتويات

الذاكرة ليست حدثاً مكتسباً لا يقبل التشكيل!..

الحياة لا تلقننا ذاكرتنا و لكن تمنحنا مادتها!..

الذاكرة فرصة مفتوحة الأمد للاستدراك على الوعي!..

وحين تصنع ذاكرتك..

بالتأمل..

بمزج التجارب..

بملاحظة التفاصيل المُهدَرَة الجميلة فيها..

فأنت تصنع جنتك أو نارك التي لن تستطيع الفكاك منها!!

«المؤلف»

عودة إلى التل الشرقي!

«حين تتوقف عن مطاردة أحلامك...

فإن أحلامك ستبدأ تطاردك..!!»

ديز ديل ريو

كانت المرأة العجوز تقول لهم:

ـ لا تبتعدوا!. إلعبوا عند التل الشرقي!!...

حين كانت السعادة لا تحتاج إلى مبررات والابتسامات لا تُشترى بالتذاكر، لا يملكون إلا أيديهم الصغيرة ورغبتهم النقية في اللعب فيحملون أسماءهم في صدورهم ويذهبون!!

يخدشون وجه الصخر بأصابعهم، يكتبون أسماءهم، ويرسمون قلوبهم الصغيرة وشيئاً من زخرفات الورود! ويقول بعضهم لبعض:

ـ عندما نرحل سيمر أناس أغراب من هنا وسيعلمون أن ثمة أناس قبلهم كتبوا هذه الأشياء!

ينتابهم شعور لذيذ بأن هناك من سيعلم أنهم مروا!!...

وأن هناك من سيعرفهم...!!

لا يعلمون أن في الدنيا عسسَ شرٍّ يقتفون أثر العابرين ليغتالوا المدبرين من ظهورهم! لا يعلمون أن للتاريخ لعنة قد تخرج من شق حجر صغير خطوا عليه يوماً ما أسماءهم! لا يعلمون أن الأشرار في هذه الحياة يزوّرون حتى التاريخ ويحرفون الآثار، أو ربما يسرقونها ويبيعونها على سائح ضاق

ذرعاً بفضوله ليرحل بها بعيداً وراء البحار! لا يعلمون أن الحكومات اخترعت البطاقة الشخصية والبصمة الإلكترونية فقط لتعرف الناس، وتعرف متى وكيف تحضرهم حين يهربون من أسمائهم!!

رسم أمهرهم اسمه الرباعي كاملاً قبل الجميع، بينما لم يستطع بقية الأطفال سوى كتابة أسمائهم الأولى، فبقيت أسماؤهم خُدّجاً على الصخور! مات الذي كتب اسمه الرباعي بعد عشرين عاماً في حادث سير وبقيت الأسماء الخُدّج على قيد الحياة. كأنه كان يعلم أنه أقربنا إلى النسيان!...

مرت السنون وجاءت الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي فبحثت عن أصدقاء التل الشرقي! بحثت عن أسمائهم التي كانوا يرسمونها على الصخور ليعرفها الناس...

فلم أجدهم!!

سألت عنهم من قد يعرفهم، وإذا بهم يكتبون خلف أسماء وهمية وقالوا لمن كشفوا له أسماءهم:

- الويل لك إن أخبرت أحداً بأسمائنا!!..

فتركتهم وعدت إلى التل الشرقي!...

تذكرت مقولة بيكاسو: «كل طفل يولد فناناً، ولكن المشكلة كيف يبقى فناناً حين يكبر!!». حين نكبر نفقد القدرة على رسم

الأشياء، لأن الأشياء ذاتها قد تحولت إلى معانٍ كثيرة يصعب حصرها! حين نكبر نفقد القدرة على التعبير عن أنفسنا، لأن الكذب والخوف والماضي المثخن بالخيبات، كل واحد منها يهز اصبعه الغليظة أمامنا ويقول:

ـ الويل لكم إن عَلِم الناس بأسمائكم!!...

عدت إلى التل الشرقي لأكمل الاسم الخديج الذي تركته قبل خمسة وعشرين عاماً طالما أني في النهاية سألتحق بصاحب الاسم الرباعي وأموت! عدت لأنني لم أستطع الهرب أصلاً بعد أن أصابتني لعنة الكتابة منذ تلك اللحظة الأولى التي نقشت فيها اسمي على التل!...

الكتابة...!

ذلك الداء الذي يشبه أكل الشاة المسعورة لصوفها، رغبة ملحّة بتعرية الذات واقتناص لحظة خالدة. أن تلقي القبض على روحك في أعلى منحنيات نشوتها وإخفاقها!

وأن تعود لتنقش اسمك ناقصاً كل مرة على التل الشرقي ولا تتوب!...

ولن يعنيني من سيموت أولاً هذه المرة!!...

* * *

كائنات تشريحية!!

«الكتابة انفتاح جرحٍ ما»

كافكا

أجلس وحيداً في بيتي كبرغوث الكتب! أفتح رواية لكاتبة سعودية، رجال الدين، الهيئة، تحب شاباً ليس قَبَليّاً، البنات يتعاطين الحشيش، حفلة رقص مختلطة في استراحة مع قارورة «بلاك ليبل»، ثم تُبتعث الفتاة إلى الخارج، فتتحول إلى ملاكٍ ناجح، وتعود بشهادتها للوطن المليء بالتابو وتنتهي الرواية!!

لم يعد لدينا وقت لنقرأ كتاباً، لأن المقاطع الإباحية قد تغني عن مثل ذلك الكتاب! في السابق كنا نقرأ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لحشو فراغنا البليد لا أكثر، حتى جاء العالم الافتراضي فمنحناه شيكاً على بياض نسرف فيه في هدر أنفسنا! لا مجال للتافهين اليوم في سوق التفاهة المحلية، فهو مشبع بالتفاهات من كل بقاع الدنيا! لم تعد للمعرفة قيمة كتلك التي تحدّث عنها سيبانوزا حين عرَّف السعادة فقال «هي فرح المعرفة!»، فلم يعد للمعرفة فرح ولا حتى مأتم أو عزاء للتباكي عليها. أهرب من شذوذي الاجتماعي إلى «الاستراحة» وأترك الكتب! تلعب البالوت وأنا أشجع كالأطفال الذين يجمعون الكور في المباريات المهمة خلف خطوط التماس!!

أضيق ذرعاً بصراعهم الطفولي الساذج، فألتقط جهاز التحكم وأقلّب قنوات التلفزيون! يخرج على الشاشة شاعرٌ

يتلوى ويتأوّه في «مشلحه» من عذاب الحياة التي لم يذق منها إلا العسل حين وُلِد وملعقة الذهب في فمه! يمثل دور الإنسان الشفاف، وهو ظلمة من ظلمات بعضها فوق بعض، تجسدت على منصة باعها له حيوان مثله! يقرفني المشهد كثيراً فأطفئ التلفزيون وأنا أتمتم: من لم يستمع لصوت تحطم عظامه تحت جنازير الحياة، فلا يقرفنا بالحديث عنها!

أنظر في وجوه القوم في الاستراحة فلا أرى إلا وجوهاً كوجوه كفار قريش في مسلسلات رمضان وهم يضحكون حول المائدة ببلاهة وجشع وينادون: أين «النبيز» أيتها «القارية» ولكنهم استبدلوا ذلك بلعب الورق والمعسل وصرخات «جمر يا ولد!».

أنظر للإعلام فلا أرى إلا وجه أبي دلامة مهرج البلاط، فيضيق بي المكان والزمان ذرعاً، فأهرب إلى الفضاء لتتلقفني «حبابة وسلامة» جاريتا يزيد بن عبد الملك، وقد اندلقت لحومهما من ملابسهما تحدثاني عن الفن والتنوير والثقافة وحقوق الإنسان! يا إلهي! ما هذا الجو الثقافي المتعفن تحت أردية النفعية والتصنّع والاستعراض الفارغ ؟!!

يضيق بي الزمان والمكان والكتب والبيت والاستراحة فأهرب إلى الذاكرة، إلى الزمان البعيد الأول الذي تعلمت فيه الملاحظة وهاجس الأدب! إلى المرحلة الثانوية تحديداً، حين

خرجنا إلى مختبر المدرسة في مادة الأحياء والأستاذ متحفز للتجربة الجديدة، ولم أكن أتصور أنها تتجاوز قشرة بصلة على مجهر مدرسي!

دخلنا المختبر فأحضر الأستاذ حمامة جميلة فوضعها على الطاولة ثم وضع على أنفها قطنة مليئة بمادة مخدرة فنامت! أخذ مشرطاً فشق صدرها وهي حية فأصبت بشيء من القرف والخوف وهو يفج أضلعها ثم يفتح صدرها والطلبة يتساءلون: هل تشعر بذلك؟ وهو يطمئنهم أنها لا تشعر بشيء، بينما كنت أتساءل: هل سيصلح ما أفسده من جسدها؟ كيف سيصلح ما أفسده من جسدها؟! فكرت في سؤاله عن ذلك ولكن خشيت أن يكون الرد: «لن نصلح شيئاً، سنرميها في القمامة!»... فلم أسأل!!

فتح أضلعها وأشار إلى قلبها الصغير وهو ينبض وينبض، وهو يخبرنا بمعلومات سمجة لا نجهلها ولا تستحق كل هذه البشاعة لنفهمها! كان همّ الأستاذ أن يدوّن في دفتر تحضيره الذي سيوقع عليه المدير أنه أجرى عملية تشريح حية للطلبة!

لأول مرة أشعر بأن الإنسان كائن همجي، ولأول مرة أشعر على نحو حسي بطبقية الكائنات على هذا الكوكب، فالإنسان يفتح صدر حمامة وهي حية لمجرد أن يخبر حفنة أوباش، لا

يفكرون إلا بلحظة صفير الجرس، بأن قلب الحمامة في صدرها وليس في بطنها أو رجلها أو رأسها!! شعرت أن الكائنات تعاني كثيراً بسبب عدم قدرتها على السيطرة على الإنسان، وانتابتني حالة هلع ألقت بظلالها على وجهي وأنا أتصور بأن الله سيسألنا ذات يوم: ماذا فعلتم بهذه السلطة والفوقية التي منحتها لكم؟

انتهت التجربة ولم يخبرنا ماذا سيصنع بالحمامة فهي حتماً غير صالحة للأكل بعد أن رش في بطنها موادَّ كيميائية كثيرة، ولا أظنه أيضاً سيخيط صدرها من جديد! حملنا الكتب وخرجنا من المختبر وأقنعت نفسي بأنه ليس من وظيفتي التفكير بمصير كل الأشياء!!

الآن أفهم لماذا يجب أن أكتب!!...

نحن نكتب لأننا حمائم تجارب على طاولة الحياة!...

هكذا بكل بساطة!...

الكتابة ليست حالة ترف عقلي! الكتابة ليست وردة يعلقها الكاتب في ياقة «مشلحه» يتزين بها ولا أكسسواراً يخضع للون حذاء الكاتبة أو غلاف هاتفها المحمول! الكتابة قلق وجودي يمارس نفسه، هي جوهر التجربة والجرأة على الوصول إلى جواهر الأشياء!

نحن من وجدت الحياة فينا المثال المناسب لتشرح لبقية

البشر أن قلوبنا في صدورنا، وأن الآدمي كائن حي يشعر ويتألم ويفكر! كلما تكلمت عن شيء في صدري تذكرت نظرات تلك الحمامة وهي تفيق وتعود إلى الموت من جديد، والأستاذ يشير إلى تجاويف صدرها! نحن نكتب لأننا أكثر الكائنات وضوحاً في تمييز تركيبتنا كبشر!

أُكتب! قَدَرك أن تكتب وتُمضي عمَرك متسائلاً عن كل شيء حولك وكأنك مكلف بفضح سرائر أحاسيس البشر، أنت أكثر الكائنات بساطة وسهولة ووضوحاً في محتواه، لهذا فأنت مثال جيد على طاولة التشريح!

لقد أخبرنا أستاذ الأحياء بأنه ليس كل كائن صالح للتشريح، لأن هناك كائنات معيّنة فقط يمكن الوصول إلى أحشائها بسهولة وتكون تراكيب أجهزتها أكثر وضوحاً وتمايزاً، وتحتوي تراكيب جسدها على أكثر المقرر المدرسي! أنت كذلك من دون الناس كنت صالحاً لما تفعله الآن، لأنه يسهل الوصول لأحشائك، ولأنك تحتوي أكثر المقرر الحياتي! الكاتب الحقيقي هو الذي يكتب ولديه يقين تام أنه لن يكون صالحاً للعيش بعد ذلك! يكتب بوضوح انتحاري، بصدق تشريحي كتلك الحمامة تماماً!! هذا قَدَره! الله خلقه ليخوض التجربة ويتحدث عنها بينما خَلَق الآخرين ليعيشوا!!

عليك أن تبتسم، إذاً، كلما كتبت وأن تشير إلى أحشائك بوضوح، فهذه رسالتك الأسمى وهذه قيمتك ولن تصلُح لغير ذلك! عليك أن تكرر الشرح أكثر، فأكثر فمن يقفون حولك على طاولة القراءة يراقبون عملية التشريح، طلبة أغبياء يحسبون أنك معاق يتبرع بعضوه المعطل!...

* * *

«أقلامنا هي أسامينا!»

«المثقف هو من اكتشف شيئاً أكثر تشويقاً من الجنس!»

هكسلي

دخلت إلى مكتبة الجامعة في جامعة البترول والمعادن، وكان لدي بحث في مادة الإنكليزي وكانت الأيام حينها هي أيام الامتحانات لأغلب طلاب الجامعة. جلست أبحث في المكتبة، وحين مررت بركن القراءة وجدت صديقي جالساً يقرأ، وكان المفترض به أن يكون الآن في قاعة الامتحان في هذا الوقت تحديداً، فاستغربت من وجوده! اقتربت منه لأرى، وإذا به يقرأ رواية كان قد حدثني عنها سابقاً، ويبدو أنه في منتصفها الآن كما ظهر من الصفحة. سألته بدهشة:

ـ ألا يفترض بك أن تكون الآن في قاعة الامتحان؟!!

نظر إلي بدهشة مثل دهشتي، وقال:

ـ أوووه! أتصدق أني نسيت الامتحان؟!!

رمقته بامتعاض ومضيت، وفي المساء قررت الذهاب إلى هذا المخبول لأرى كيف هو، فحين يدخل في عالم القراءة ينسى حتى الأكل والشرب! دخلت عليه غرفته فوجدته يقرأ الرواية نفسها وليس على وجهه أدنى علامة من علامات الشعور بالذنب!

كانت الغرفة «سكراباً ثقافياً»، الكتب مكومة في كل مكان ومن كل الأصناف باستثناء كتب المقررات الجامعية، فسألته عن كتب الجامعة فأخبرني أن رفاقه يعلمون أنه لا يستخدمها، وكلما ضاع كتاب لأحدهم جاء وأخذ من كتبه! قلت له: ألا تخجل من نفسك؟ تترك أهلك وعائلتك في الشمال لتغيب هنا عن الامتحانات من أجل قراءة رواية؟ فرد ببرود وثقة: مُحب المعرفة مؤيد من الله يا عزيزي وسأتخرج قبلك!

نعم لقد تخرج ولكن ليس قبلي وكان تخرجه شيئاً يشبه المعجزة! هذا الشخص عرفته أكثر من أي صديق آخر! عرفت حتى روحه في التعبير، فحين يكتب لي أي شيء على باب غرفتي في سكن الطلاب، أعرف أنه هو من كتبه من دون أن يدوّن اسمه فكنت أعرف شخصيته من عباراته!

صديقي هذا لم يكن حالة شاذة! لدي يقين أن هناك طائفة من البشر موبوءة بالذهن والتفكير وهذه الطائفة تختلف نتائج وبائها من شخص إلى آخر! عندما تجد شاباً ترك الرياض غاليري والصيرفي مول والراشد مول وقد تهلس شعر رأسه وهو يدخن ويحكه ويفكر عن أسباب انهيار الشيوعية أو اختراع البشر لأسطورة حورية البحر التي تفتقد أثمن ما في المرأة، الساقين والفخذين، ثم يوغل في ذلك ويجعله شغله

الشاغل، فلابد أن ثمة نتيجة غير عادية لصراع داخلي غير عادي جعله يفعل ذلك!

عندما يرفض كارل ماركس أكل علاج الدمامل لأنه يحد من قدرته الذهنية ويقبل بأن يكتب ثمانمائة صفحة من مسودة كتابه **رأس المال** وهو واقف، لأن الدمامل تمنعه من الجلوس، فلابد أن ماركس يؤمن تماماً أن ما لديه من نتائج لصراعاته الداخلية أهم بكثير من التفكير في معاناة تأليف موسوعة فلسفية وهو واقف محني الرأس يخط ويفكر!

هذه الطائفة البشرية التي تحترم صراعاتها الداخلية وتنصت إلى نتائجها، طائفة ليست بالكبيرة، ولكنها موجودة ونلمحها هنا وهناك، ونعرفها من سيماها ومن لحن قولها! شخصياً، أستبشر عندما أجد أحداً من هذه الطائفة المصابة بداء التفكير المزمن وأنظر إليهم وإلى نفسي كما ينظر أصحاب ذوي الاحتياجات الخاصة لبعضهم البعض كلما تقابلوا على قارعة الطريق!

أفكر بالفعل ببناء منظمة تدعو إلى وضع دستورٍ خاص لهذه الكائنات تحت عنوان «ذوي التفكيرات الخاصة!». دستور يمنحهم بعض الاحترام والتقدير لظروفهم العقلية التي جعلتهم أقل تعلقاً بالواقع العلفي، فلا يلزمون بالوقوف في طابور الانتظار، ولا يكلفون بجلب الخبز من المخبز، ويحق لهم

الزواج من دون مراسيم تقليدية غبية تضيّع وقتهم التافه الذي يعتقدونه ثميناً!

أمثال هؤلاء الناس هم الذين يصنعون التنوع في الحياة ويمنحون المجتمع «نكهة البشرية» بينما بقية البشر ليسو إلا نسخاً متماثلة تشبه علب البيبسي، الشكل ذاته، والمكونات ذاتها، والاستخدام ذاته!

عندما أجلس، كما تصفني زوجتي «مونس حالي»، أكتب وأقرأ ويراني الآخرون على أني أمارس العبث السخيف مع أنني في الحقيقة «عالق بالقاع» ولا أجد من يسمعني في مثل هذه الحالة إلا الكتابة!

هناك شغْبٌ من الأفكار والأحاسيس بداخل كل إنسان يحاول رعايته والاهتمام به! المشتتون ذهنياً يضحّون بانتظامهم الخارجي في سبيل تنظيم داخلهم الممزق! هذا ما يمنحهم نكهتهم الخاصة، ويجعل لهم طعماً غير طعم الآخرين، لأن بداخلهم خليطاً معقداً من الصراعات الجادة والنتائج المختلفة. خليطاً لا يمتلكه من كان داخله داخلاً مؤدلجاً على الاعتياديات والمسلّمات ومهام الحياة الأصلية العامة!

يقول جوزيف حرب:

"شو بدنا بالأسامي؟...

الأسامي كلام!...

عنينا هن أسامينا!!"...

هذا صحيح جداً! أعيننا تشبه شواطئ العراة، تمر الأحاسيس عليها عارية! ولو كانت العين شيئاً آخرَ لكانت رسولاً صادقاً لا يكذب!

و إن كانت روما تحترق وقد مات نيرون وروما لم تمت، بـ"عينيها تقاتل» كما يقول محمود درويش، فكثير من الناس الذين تخذلهم قدرتهم على التعبير، يلجأون إلى أعينهم لتعبّر بدلاً منهم، وإن كانت الأعين هي الأصدق، ولكنها لا تستطيع قول كل شيء ولا يستطيع قراءتها كل أحد!

أما وإن كانت الأعين لا تُرى، فأقلامنا «هي أسامينا!!»...

لأننا حين نكتب لأنفسنا لن نكذب ولن نتخفّى!

❊ ❊ ❊

ليلة الهروب من أميرة!

«لقد وُلِدت مع حاجة عظيمة للحصول على العاطفة والقدرة على منحها!...

وكذلك كل أنثى!»

أودري هيبورن

رأيت فيما يرى الراوي أنها كانت ليلة الخميس، ولم يكن من عادتي الذهاب خارج سكن الجامعة إلا إلى مدينةِ الخُبَر، وكنت في ثالث سنة لي في الجامعة، وفي هذه الليلة جاءني قريب وقال بأنه ذاهب إلى الدمّام حيث يسكن فلان وفلان وفلان وكلهم من أقربائي، غير أني لا أواصلهم ولا أطيق الذهاب إليهم. خرجت معه بعد أن ألح علي وهو يعدد محاسن الخروج والذهاب للكورنيش، وأنني أعيش في عالم محزن من العزلة، وأن علي أن أكون «شاباً سوياً» يجيد ممارسة أفعال الشباب!

عند وصولنا إليهم كانوا يتهيئون للخروج إلى كورنيش الدمام، وكانوا يتحدثون عن أي الأماكن أكثر ازدحاماً، وأين تكثر مواطن الريبة، وكنت أكتفي بالاستماع كطفل ينصت إلى عجائب بهلوانية يذكرها له الكبار من أهله وهم يذهبون به إلى الملاهي أو السيرك! انتهى الأمر على أن «جزيرة المرجان» هي المكان المناسب! وفعلاً توجّهنا إلى هناك ونزلنا، وكل شخص يتأبط يد صديقه الحميم وهو يهمس له «شوف هناك!!» إلا أنا لم يكن أحد يتأبطني ولم أكن أتأبط أحداً!

كانت الرطوبة واضحة نسبياً مع هواء شبه بارد، وكان الجو

يختلط بصخب الأطفال وهدوء العوائل الجالسة، ونور الأضواء الخارجية البرتقالي يختلط برذاذ الرطوبة فيبدو احمراره واضحاً، وكانت المسطحات الخضراء تحيط بالمطعم والكفيتيريا في منتصف الجزيرة والناس من حولهما، وكان هناك ممشى مرصوف بجانب البحر.

مررنا بالمدخل، وصادف أن كان هناك خمس فتيات يقفن بجانب فتاة مقعدة، وما إن رأت الفتيات مجموعة من الشباب قادمة وعلمن أين سيتجهون حتى تحركن في اتجاههم نفسه، وإحداهن تقول للفتاة المقعدة: «أميرة حبيبتي شوي ونرجع"! كل واحد من أصدقائي صار يهمس في أذن صديقه ويلقي إليه بالتعليمات السريعة لاستغلال الفرصة، ولا أدري لماذا نظرت إلى تلك الفتاة المقعدة التي تركنها خلفهن وكان في عينيها شيء من القهر الدفين المستسلم.

كانت في قرابة الحادية أو الثالثة والعشرين من العمر، وكانت تفهم جيداً ما يحدث، وتتمنى لو أن لها قدمين تمشيان لتحرك خصرها النحيل في طابور صديقاتها، والشباب يهزون رؤوسهم إعجاباً بها. نظرت إليها ربما لأنني مثلها معاق أيضاً! ولكني معاق نفسياً من ممارسة حماقة أكبر من حماقتهم، حماقة يسمونها الحياة!

أصدقائي تقدموا بخطواتهم بسرعة وجرأة وحماقة، فاستحييت أن أفعل مثلهم فوقفت، وعندما نظرت أمامي وجدتها تنظر إلي فابتسمت لها في البداية ابتسامة مشفق عليها، ومواسٍ لها، وساخر مما يفعل أصدقائي وصديقاتها على مرأى من الناس، فابتسمت وعلمت ذلك من عينيها، ولم أكن أعلم أنني ضعيف لذلك الحد، فقد تحولت هذه الفتاة في عيني إلى أجمل فتاة في الجزيرة! تداركت نفسي وخشيت أن تفهم أني أغازلها، فتأمل في شيء لا أستطيع منحها إياه فأزيدها حزناً إلى حزنها، فتحركت وأدرت ظهري لها، حتى دخلت في كومة من الأشجار المحيطة بالمطعم وأنا استرق النظر إليها لأرى هل جرحها تصرفي هذا؟

أخذت تدور على كرسيها وتثبت يديها على عجلاته وتنظر يميناً وشمالاً، ثم سكنت وأدارت ظهرها إلى الجهة التي ذهبت إليها. أخذت أراقبها من بعيد والأطفال يلعبون من حولها بالكرة، وبعد ربع ساعة تقريباً مدت يديها فألقوا إليها بالكرة وأخذت تلعب معهم، ثم قررت العائلة القريبة منها أن ترحل، فرحل الأطفال والكرة وبقيت أميرة وحيدة تنتظر صديقاتها، فشعرت بمرارة الوحدة والعجز الذي تشعر به الآن!

في هذه اللحظات مر عامل الكفيتيريا، وكان عائداً من

إيصال طلب لعائلة ما في آخر المسطحات الخضراء، فنادته الفتاة تريد أن تطلب شيئاً ففتحت حقيبتها اليدوية لتعطيه النقود ويبدو أنها نسيت أن تصطحب النقود معها فأشارت له بعد أن فتشت شنطتها بأن يذهب فذهب!

طال انتظارها لصديقاتها وكثر توافد الشباب إلى الجزيرة، وكلما نظر إليها شاب تكلم مع صاحبه فكنت أستطيع أن أفهم من حركاتهم السخيفة أن أحدهم يقول للآخر: «والله خايف أن ما ترضى فيك إلا هذي!». كانت هي تشعر بذلك، فأخذت تحرك عجلات المقعد لتبتعد عن المدخل، وكانت تقف على أرض مزروعة بالنجيل، فكان منظرها وهي تدير العجلات بصعوبة ورأسها يهتز، منظراً مخجلاً تفوح منه رائحة العجز والضعف والنقص، خصوصاً وأنها فتاة في مكان عامّ فما إن استطاعت أن تصل إلى شجرة قريبة فتوارت خلفها عن المدخل ووقفت، شعرت برغبة بالذهاب إليها ولكنني خجلت من أفعل ذلك!

توجهت إلى شباك الكفيتيريا وكان خلف ظهرها، فاشتريت عصيراً مثلجاً فجاء طفل في العاشرة من عمره وكان يبدو مرحاً للغاية فتجرأت على طلبه فقلت له: «أنا رايح للسيارة أجيب أغراض نسيتها فيها، عشت الشاطر تودي العصير هذا لزوجتي؟». فقال الطفل: «وينها؟»، فأشرت إلى الفتاة، وقلت

له:"إذا عطيتها العصير قل لها هذا عطاني اياه زوجك وقال لي روح للي جالسة على الكرسي وقول لها هذا من زوجك حبيبك». فابتسم الطفل وفي عينيه شيء من الخجل، وقال: «هذا من زوجك حبيبك»، فقلت: صح! شاطر. فذهب وهو سعيد بهذه المغامرة السحرية وتركت أنا المكان وعدت إلى مكاني القديم خلف الأشجار.

كنت أستطيع أن أرى ابتسامة عينيها من على بعد، أو هكذا خيل إلي، وقد أدارت الكرسي باتجاه الكفيتيريا، ثم أخذت تشرب من العصير، مرت مدة غير قصيرة وهي تشرب وتنظر يميناً وشمالاً، ولعل مشوار الطفل هذا قد جعله يحبها أيضاً، فعاد إليها ومعه بالون منفوخ وآخر جديد، فأخذت تنفخ البالون، ثم تكلمت مع الطفل فأخذ يدفع معها الكرسي فتوجهت نحو الرصيف المحيط بالكفيتيريا فعلمت أنها تبحث عني!

كان الطفل ينظر من وراء الكرسي وهو يهز رأسه، كأنه يقول «ليس هذا» كلما مر شخص من أمامه وفجأة تركها وذهب يركض لينظر في وجه رجل كان مديراً ظهره لهما، فأطل في وجهه ثم عاد وهو يهز رأسه فتيقنت أنها تبحث عني بالفعل، فشعرت بخوف من أن تجدني فأضطر لتبرير ذلك بأي تصرف أو أن يفضحني الطفل بين الناس، فتوجهت إلى الباب الآخر

للمطعم وصعدت إلى الدور العلوي، وأخذت أراقبها من هناك ثم اختفت بين الناس!

مرت لحظات وإذا بها تعود ولكن هذه المرة مع زميلاتها الهاربات منها وكانت علبة العصير ما زالت في يدها، وفي هذه الأثناء كان أصدقائي قد عادوا أيضاً فتعمدت إن أنزل وأن أمر من أمامها وكنت خجلاً، فأنا أعلم أن لي في مخيلتها صورة معلقة على جدار وقد كُتِب تحتها «هذا الشخص مطلوب» فما إن رأتني حتى ابتسمت عيناها الجميلتان من وراء النقاب فنظرت أنا إلى علبة العصير وابتسمت فعلمت الآن أنني يقيناً من فعل ذلك، فشعرت بارتباك وفرحة كبيرة تجتاحها، فانطلقت مسرعاً إلى أصحابي وأنا مسرور جداً، وهم يقولون:

«والله شكلك لاقي لك بلوى!!»

فقلت: «يمكن!!».

كنت سعيداً تلك الليلة وكنت أشعر فعلاً أنني عاشق متيم، وكنت أعلم أيضاً أن أميرة الآن تحتضن علبة العصير وتشعر بأنها من أجمل نساء الأرض وأنها عاشقة متيمة، وكان هذا يكفيني!....

لم تجمعنا شهوة جسدية، لم تعبث بي ولم أعبث بها،

وكانت تعلم أنني لا أريد منها أكثر من ذلك، وأنا أعلم أيضاً أنها لا تريد مني أكثر من ذلك...!

وكان هذا يكفينا...!

* * *

قَتلت لأنهم قَتلوا!!

«حين نتذكر سنكتشف كلنا أننا حمقى!...

بعد أن اختفى الخيال والغموض، ووقفت الحياة لتشرح لنا بوضوح!»

مارك توين

كان حديثهم منذ الغروب عن رحلة الصيد التي ستكون الليلة! وكان هو في السابعة من عمره ينظر للكبار في بيت الشعر وقد أخرجوا الأسلحة، رشاشات وبنادق وكلب صيد. وضعوا صحناً كبيراً وصبوا فيه الكيروسين ليغسلوا أسلحتهم ويقوموا بتنظيفها وهو يراقب فكلفوه بغسل الرصاص ففعل. كان يمسح الرصاصة بقطعة قماش مبللة بالكيروسين ثم يضعها في صحن فارغ وهو ينظر إليها بريبة ويتساءل كيف ستخترق جسد الأرنب هذه الليلة وأي أرنبٍ ستكون هذه الرصاصة من نصيبه؟ وهذه؟ وهذه أيضاً!؟

وحين اشتد سواد الليل تجهز الجميع وحُدد المكان وحُدد السائق والرامي وكانت السيارة جمس سوبربان وانطلقوا! الجميع متحفز ومتوتر وكان هاجسهم الوحيد هو الخشية من عدم وجود صيد هذه الليلة مع أن الأرانب حينها كانت متوافرة جداً، وكان هو لا يدري بأي شعور سوف يعيش هذه التجربة. كانت شيئاً يشبه التورط بركوب قطار الموت، هناك متعة لا شك، لكنها على ما يبدو متعة مخيفة! لم تمر نصف ساعة تقريباً إلا والسائق يصيح هذه هي! هذه هي! الأرنب الأرنب! فثار كلب الصيد يضرب رأسه بالزجاج يريد النزول والجميع يصرخون: يمين...

يمين... لا...لا...يسار... يسار! والسيارة تقفز من حجر إلى حجر والجميع مستميت في تتبع الأرنبة وهي تركض وتركض تحاول النجاة بكل ما تملك من قوة وحيلة، تحاول النجاة بلحمها... بجسدها! شعروا أنها ركضت بما فيه الكفاية فأطلقوا كلب الصيد فأخذ يتتبعها وهم يصيحون: أنظر إليها سيظفر بها الآن! والطفل يراهم مبتهجين، فيمثل عليهم دور المبتهج: نعم نعم سيظفر بها الآن! وللأسف فقد ظفر بها بالفعل! سمع الطفل صراخها كصراخ المولود لحظة ولادته فاقشعر جسده والكلب يعضها ويرفعها ثم يضربها بالأرض، فنزل أحدهم بسكين يحمله بيده فذبحها فسكنت!

كانوا يتحدثون بعدها عن مدى براعة الكلب في الاصطياد وكم هو مطيع وماهر، وكان الطفل يتساءل: لماذا تحول كلبنا الودود إلى سبع شرس بهذه الطريقة الدموية؟ ما المشكلة بينه وبين الأرنبة لكي يطاردها ويقتلها بكل هذه القسوة؟ كيف اتفق الكلب معهم على أن هذه الأرنبة يجب أن تموت؟ وككل مرة يتسائل فيها لم يجد جواباً، فاكتفى بتمثيل دور المنسجم مع الجماعة!

مر وقت ليس بطويل بعد أن اصطادوا عدداً من الأرانب فقرروا الاصطياد بالبنادق والرشاشات! كانت الأرانب كثيرة

وكل رامٍ أخرج رأسه من فتحة الزجاج الجانبي يطلق الرصاص والأرانب تموت تباعاً والطفل يتساءل: إن كان عندنا أكثر من ألفي رأس من الغنم وأكثر من مائة بعير، فلماذا يفعلون كل هذا؟ سألهم: «ليش طيب لازم أرانب؟» فقالوا بأن طعمها لذيذ! للأسف كان ذلك الطفل آخر من يفكر في طعم الأشياء التي يأكلها، ولم يكن يتصور أن أحداً قد يعاني كل هذا العناء والرعب والقتل لمجرد أن يأكل شيئاً يظنه لذيذاً! حاول الطفل تجاهل التفكير كثيراً في هذه النقطة، فهم رجال كبار ولا شك أن لكلمة «لذيذ» قيمة واعتبارات أخرى لا يعرفها إلا الكبار!

عادوا لبيت الشعر بأكثر من عشرين أرنباً بعضها مذبوح وبعضها مزقته البنادق، وحين جلسوا يتفحصونها كان ينظر لحبات الحديد الكروية الصغيرة التي تحشى بها طلقات «الخرطوش» فإذا بها قد ملأت أجساد الأرانب، بطونها وأيديها وأرجلها وحتى أعينها! بدأوا بتنظيف الصيد، وكان الطفل يعمل معهم ويقطع اللحم معهم ويشويه، ثم جلسوا جميعاً يأكلون ويقولون له: أرأيت كم هي لذيذة؟ فقال: نعم لذيذة! يا الله كم هي لذيذة! مع أنه يرى طعمها عادياً لا يختلف عن الدجاج في شيء، لكنه أراد أن يشارك الآخرين «نشوة الفرح بالانتصار»

حتى وإن كان انتصاراً مبهماً غبياً بالنسبة إليه! قامت النساء بطبخ بقية الأرانب، ودعي الجيران من أصحاب بيوت الشعر المجاورة، والجميع يتحدث عن تفاصيل المغامرة وكم هي أرانب برية لذيذة!

خلد الجميع إلى النوم، ومع خيوط الفجر الأولى لحظة زرقة الأفق قام الطفل ليذهب إلى الخلاء، فأعجبه المنظر من حوله فقرر أن يطيل المشي وأن يصعد مكاناً مرتفعاً ليرى المساحات من حوله، وحين نزل قفزت أرنب صغيرة من شجرة كانت في طريقه، فانبعثت نشوة مغامرة البارحة في صدره فصاح بشكل لا إرادي: الأرنب! الأرنب! وهي تركض وهو يركض خلفها ولم تغب عن نظره، فهي صغيرة لا تكاد تحسن الركض، وفجأة وجد كلب صيد الجيران يركض أمامه ينتظر منه الإشارة فأشار الصبي إليها فانقض عليها الكلب فأمسكها! لم يكن يتصور الطفل بأن هذا سيحدث وأنه سيتمكن من فعله بمفرده، فأقبل بين مصدّق ومكذب وانتزع الأرنب من بين فكي الكلب فكانت في الرمق الأخير، فبحث في جيبه عن سكين فلم يجد فنظر لبيوت الشعر فإذا هي مسافة نصف كيلو أو أكثر وليس هناك وقت. كانت رغبته في أن يصبح كبيراً يصطاد الأرانب كما يفعل الكبار رغبة جارفة وقد تحققت، ولكي تكتمل لا بد أن

يكتمل العمل بذبح الأرنب كما كانوا يفعلون ليلة البارحة فانقض بأسنانه يمزق حلقها حتى ذبحها!

انتهى المشهد! وقف الطفل وبيده الأرنب الصغير والدم على يديه وشفتيه وكلب صيد الجيران واقف ينظر! سأل نفسه من جديد: لماذا قتلها هذا الكلب أيضاً كما فعل كلبنا ليلة البارحة مع تلك الأرانب؟ من أخبره أن يفعل هذا بهذه الطريقة؟ لماذا انضم إلي حين صرخت؟ هز الكلب ذيله ثم مضى يمشي بزهو ونشوة متجهاً إلى بيت الجيران فتساءل الطفل من جديد: لماذا، إذاً، يقتل هذه الكائنات بكل هذا الحماس إن كان لا يريد منها شيئاً أصلاً؟

بحث الطفل عن نعليه تحت زرقة الفجر وعاد بالأرنب متوجهاً إلى بيت أهله وكانت خيوط الشمس لم تبزغ بعد، وكانت الأجوبة قد بدأت تتداعى إلى نفسه!

وجد هاجساً بداخله يقول:

ـ أنت أيضاً فعلت كما فعل كلب الصيد! لماذا طاردت الأرنب؟ ولماذا أمسكت به؟ لماذا ذبحته بأسنانك؟ فالكلب نفسه لم يفعل ما فعلت. ألم تكن ليلة البارحة يقشعر جسدك لصراخها مستغيثة بين فكي كلبكم الشرس؟ ثم ألم تلاحظ أنها صغيرة

وأن أمها ربما تبحث عنها الآن؟ وربما كانت تراقبك وأنت تفترسها بأسنانك؟

توقف الطفل عن المشي! شعر بأنه تورط مع نفسه قبل أن يتورط مع الأرنب! نظر حوله لعله يرى أمها فلم ير شيئاً! نظر إلى يديه الملطختين بالدم والأرنب الصغير ممزق الحلق بين يديه، فاعتراه شعور مقلق بأنه قد تغير، وأن ذاته لم تعد كما هي من قبل! لم يتصور أن بداخله كل هذه الطاقة الكامنة من تجاهل مشاعره والجرأة على إيذاء الآخرين من دون مبرر، حدّاً يقوم فيه بذبح الحيوانات بأسنانه! قرر عدم الاستمرار في هذا الأمر فتوجه لتل صغير فدفن الأرنب تحت كومة من الحجارة وعاد إلى بيت أهله ليغسل كفيه خلسة ثم ينام قبل أن يكتشف أمره أحد!

كبر الطفل ومرت به السنون، وتكررت التجربة نفسها مع أشياء كثيرة يفعلها فقط لأن الناس يفعلونها، ويرتكبها فقط ليثبت أنه قادر على فعلها كما يقدر الآخرون، ويمارسها فقط لأجل أن لا يكون خارج مجموع الناس من حوله! ربما لأنه ككل البشر، يخشى البقاء وحيداً، كان يدفع ذلك الهاجس بالممارسة الاعتباطية التي تجمع الناس أكثر مما تجمعهم الفكرة والمبدأ الواضح المنطقي المفهوم، فإن كانت الممارسة قد جمعت

الإنسان والحيوان، فمن باب أولى أن تجمع البشر بالبشر تماماً كما اجتمع معه كلب الجيران على صيد ذلك الأرنب من دون أي موعد أو ترتيب!

صحيح أنه حاول مراراً أن لا يكون ظلالاً يحاكي أفعال الآخرين، لكي لا يندم يوماً ما على سيرته الذاتية التي يخشى أن تصبح شيئاً لا يخصه ولا يمثله...

وما زال يحاول....

لكنه للأسف، ما زال حتى الآن يدفن الأرانب...!

* * *

أنا آسف... أيها المجرمون!

«مصدر ندمي الوحيد في هذه الحياة هو أنني لست شخصاً آخر!!»

غراهام بيل

لا أعرف شيئاً يرفض الإنسان التنازل عنه بشدة مع أنه لا يدري ماذا سيصنع به، مثل الحرية! ربما لأن الحرية تمنحنا فرصة الهروب المفتوح من اختيار إلى آخر ومن فشل إلى آخر ولا تؤطرنا على مكان وزمان معيّن يذكرنا كل حين بهمنا السابق!

الحرية هي الميكانيكية المائية الكامنة في شراييننا والتي لم تفلح مراحل النمو في تحويلها إلى عظم جامد أو لحم متكتل، وستبقى دائماً تحاكي نهم الماء إلى الجريان الحر، وتذكرنا بأننا بالفعل لم نكن سوى قطرة ماء نتجت عن نفحة «الهوى» ذات شباط بارد!

في مدرسة سجن الأحداث كان الطلبة، منهم من حُكم عليه بالقصاص، ومنهم من سيخرج قريباً. كم هو مرعب الشعور بأن هناك ثمة من يحكّ رأسه ويفكر: هل سأسمح له بالعيش، أم أنه يجب أن يموت؟ ولي الدم الذي أصبح ولي الحياة! وَضَعَ صك الحكم في جيبه ووُضعت أنت في الزنزانة طفلاً يُربّى للموت!

تلوك مرارة الضعف وحالة «الحياة مع وقف التنفيذ»، وأنت

تفكر في الوضعية التي ستتخذها حين يهوي سيف القصاص على عنقك في لحظة قصيرة، مشحونة بالأماني والآلام الطوال!

شرحت لهم الدرس وكانوا يتابعون معي بنظام عجيب ويشاركون بجدية، وكان أحدهم ضحوك الوجه بشوش المحيا، كأن وجهه معجون بحنطة! كان أكثرهم ضحكاً ومزاحاً، فحدثتني نفسي أن أمنحهم فرصة للكلام! تكلم الضحوك وقال: هذا سيخرج بعد شهر وهذا سيحكم عليه اليوم بثلاثة أشهر.

كنت أبدي سعادتي لهم بابتسامة عريضة أتبعتها بنظرة متسائلة إلى صاحب الوجه الحنطي لألقي عليه سؤالي الأبله:

وأنت ؟!

فقال: قصاص!!....

شعرت لبرهة أن الزمن توقف وانولجت تحت جلد وجهي صورة كئيبة لي تقتحمني بشدة كلما صدمت بحزن مليء بالخيبة مع أني نسيت فمي مبتسماً على آخر عهده، فظهر وجهي بشكل يدعو إلى الشفقه! جمعت شتاتي بسرعة، فلاحظ هو ذلك، وقال وهو ما زال يبتسم بجرأة وينقل في دفتره من السبورة:

«أكيد تقول يا ستاذ أنت أكثرهم ضحكاً، وأنت محكوم

قصاص؟!!»، ثم سكت ولم يشرح هذا التناقض الذي أشار إليه فعلمت أني لست الأول الذي يقف هذا الموقف!

قلت بلهجة غبية ساذجة مفضوحة السخف والدعاء البارد:

«لا يا شيخ، بُكرة يفرجها ربك!»....

نظر إلى وجهي الذي اكتساه شيء من الاضطراب المخبول، فابتسم وأعاد نظره إلى الدفتر، فعرفت أنه قد اجتاز مرحلة البحث عن المشفقين إلى مرحلة الشفقة عليهم، كلما تصنعوا الشفقة وفشلوا في ذلك!

خرجت وهم يقولون: «يعطيك العافية يا ستاذ جميل"...

خرجت من عندهم وأنا اشعر بكمّ كبير من الإنسانية التي لا أجدها إلا عندهم، فكل تصرفاتهم «نقية وصادقة»! لا أدري لماذا عندما نتورط بالحزن نصبح أكثر بشريةً وأكثر حميميةً وألفةً، ربما لأن الحزن يكسر الكبر والطغيان في نفوسنا!

في يوم وجدته يضطجع في محراب مصلّى المدرسة ويغطي وجهه بسجادة الصلاة! لا يتكلم، فكل الكلام بالنسبة إليه الآن ضرب من العبث، فقد صدر قرار تنفيذ القصاص، وقريباً سيتم نقله إلى السجن العام لينتهي كل شيء!

حاولت أن أتقدم إليه وأتحدث معه، فسألت نفسي: ماذا أقول؟ شعرت بأن عظامي لا يقف منها عظم على عظم، وشعرت أن قلبي تحوّل إلى تجوري فارغ في دكان مفلس لم يعد يهتم!

نعم! هو ذات الطالب الذي أدرّسه من قبل فأمازحه ويمازحني! لم يبق اليوم مجال لكل هذا، إنه جثةٌ الآن تتأهب للذبح الحلال!

كان يتأهب للموت بشجاعة وهو يقول:

«والله ما همني غير العجوز والشايب!»....

وفي احتفال مدرسي أنشد أنشودة «تلاقينا» فقطّع قلوبنا حتى اغرورقت أعين كل الحاضرين!

نُفّذ القصاص قبل مدة بذلك الوجه الحنطي البشوش! لقد قتلوا «أحمد"! فصلوا رأسه عن جسده بالسيف! عدت بعدها لأجد خلايا وجوه البقية منهم قد اعتلاها شحوب حزين ولفحتها نكهة مُرّة باهتة، وخضوع يترقرق في أعينهم، يثير بداخلي سخط السخرية من بعض حتميات الحياة!

تكلم أحدهم ذات مرة فقال عبارة فيها كلمة «رأسي» وفجأة

نَفَضَت ملامحه رعشة خوف سريعة فعلمت بأنه تذكر القصاص! كل شيء كان مشحوناً. القلم يذكّر بالسيف ومسح السبورة يذكر بالموت والتلاشي والحديث العابر عن شؤون الحياة قد يفهمونه سخرية وقحة بهم!

وفي يوم وجدت أحدهم وهو محكوم عليه بالقصاص أيضاً يقف بجانب باب غرفة بعض الزملاء وكان أحدهم يصرخ:

«والله الهلال...» فيرد الثاني: «والله النصر....!» ...

والطالب يبتسم بمرارة، فقلت له: «وش فيه ؟؟».

فقال: «ياهني خلي البال!!» ...

حاولت أن أتجاهل الأسى الساخر الذي يلوح في عينيه فقلت:

لماذا لم تنزل إلى المهاجع مع زملائك وقد انتهى الدوام؟!

فقال:

سمعت أنك ستسافر إلى الرياض اليوم براً فخشيت أن تموت في الطريق وأنت غاضب مني بسبب شجاري معك اليوم حول درجتي! فتقدم وقَبّل رأسي!

شكرته وحاولت أن أصرفه من المكان بأسرع وقت ممكن، لأنني كنت سأنهار في أي لحظة، فقد تكتل الدمع في حلقي كالحجارة، فمع أنه هو الذي قد يموت في أي لحظة، لم يخطر ببالي أبداً هل هو غاضب مني أم راضٍ عني؟!

أنا آسف أيها المجرمون!!...

* * *

متطوّع بالحزن!!

«شخصية المرء هي قَدَرها!»

هرقليطس

بعد ليلة حافلة صاخبة في حفل زفاف ركبت سيارتي وتوجهت من القرية التي كان بها الحفل إلى قرية أخرى تقع على الطريق السريع المؤدي إلى المدينة التي أسكن فيها. كنت حين أصل إلى القرية الثانية سأنعطف شمالاً مع الطريق السريع باتجاه المدينة. كل شيء كان على ما يرام، وكنت سعيداً وقد استنزفت كل طاقتي من الصخب في حفل الزفاف، فخالجت نفسي راحة خفية.

فجأة اشتعلت أنوار المكابح في السيارة التي أمامي وانحرفت بشكل سريع فقللت سرعتي، وحين مضت السيارة أمامي رأيت شيئاً على الأرض ملطخاً بالدم. كان الطريق خالياً، فحدثتني نفسي بالعودة إلى ذلك الشيء لرؤيته والتحقق منه، فلما أقبلت وجعلت السيارة على حافة الطريق نزلت واقتربت على ضوء السيارة وإذا بها قطة متوسطة العمر قد مرت سيارة على ظهرها فانكسر وأصبح نصفها كقرص العجين والدم يخرج من فمها وأنفها وهي تنظر إلي بنظرات تتسول أي شيء له علاقة بالراحة، كنت أشعر بها وهي تقول «أرجوك عالجني أو اقتلني... أجهِز عَليّ»!

أول شيء خطر ببالي أنني حين كنت سعيداً في حفل الزفاف

كانت هذه القطة تعيش هذه اللحظات نفسها ولم يعلم بها أحد، فقد تعرضت للحادث منذ ساعة أو ساعتين! لم أستطع الامساك بها فقد كان جسدها شبه مفتت، فسحبتها من ذيلها إلى حافة الطريق وهي تئنّ وتبعث مواءً يمزق القلب! كم هو صعب أن يحكم عليك بالعذاب المحض، ليس الموت وليس الحياة! لم تكن هذه القطة مجرد حيوان وَطِئته سيارة عابرة، فالأمر بالنسبة إليّ بعد النظرة الأولى إلى عينيها صار أكبر من ذلك! رأيت في عينيها النظرات نفسها التي كنت أراها في أعين من ينتظرون الموت ولا يطمعون بالنجاة ممن أعرفهم من المرضى ومن المحبطين في هذه الحياة. رأيت في عينيها «الألم المتشرد» عارياً كما لم أره قبل هذه المرة، حين تصبح دموعك حزناً مهدراً كدموع صلوات الكفار في اعتبارات مؤمن متطرف! ينبغي ألاّ نأسف لها ولا أن يؤجر هو عليها! حين لا يعلم بها أحد، ولا يحترمها أحد، ولا يحزن لأجلها أحد، وليس لها وصفة شفاء!

مرت بضع دقائق فوقفت سيارة ونزل منها شخص فإذا به «فلان» الذي يعرفني وأعرفه، وقد كان معي قبل قليل في حفل الزفاف. أقبل بسرعة وطيش فوقف فوق رأسي وأنا جالس أنظر للقطة، أفكر ماذا سأصنع لها، فقال:

ـ ألأجل هذا وقفت؟! من أجل هذه؟ يا رجل! قم برميها

بكل قوة بعيداً عن الطريق، أو قم بتمرير عجلات السيارة فوق رأسها، وانتهى الأمر!

اختتم كلامه بسخرية الأجلاف الساذجة ومضى! حاولت أن لا يتكرر الموقف، فسيمرّ على الطريق أناس غيره ممن يعرفونني، فأحضرت كرتوناً وسحبتها فوقه ثم وضعتها بعيداً خلف كومة رمل كبيرة بجانب الطريق، وحين مضيت عائداً إلى السيارة ارتفع صوت موائها بشكل يدمي القلب، وكأنها تقول لا تتركني هنا! لم أفكر بتركها، لكن لم أستطع لغزارة دمائها أن أضعها في السيارة فأبعدتها لكي أواري سيارتي عن الطريق فأحضرت السيارة وأوقفتها بجانبها وأطفأت الأنوار وفتحت باب السيارة لكي أراها على نور صغير ملصق بالباب من الداخل!

أحضرت لها ماءً فشربت، ربما لأنها تظن أنها حين تشرب الماء ستنجو وتعيش، وكانت تنظر إلي باستمرار، إلى عينيّ تحديداً، ولم أفهم سبب ذلك حتى الآن! جلست أمامها أنظر إليها، فهذا كل ما أستطيع فعله، أن أجلس بجانبها حتى تموت، أخبرها أني حزين لأجلها ومهتم بألمها، وأنها ليست وحيدة! توقفت عن المواء وما زال الدم ينزف من جسدها وفمها، وهي تنظر إلي، ثم تضع رأسها على الأرض، ثم ترفع رأسها من جديد، تعيد النظر إلي! لا أدري لماذا شعرت بأن سكينة غريبة

حلت عليها، أصبحت تغفو شيئاً فشيئاً حتى سكنت ولم تعد تتحرك، وبعد حوالى الساعة تقريباً، أو أقل، من الجلوس معها كانت قد فارقت الحياة، فركبت سيارتي ومضيت!

مضيت إلى المنزل وفي مخيلتي وجه ذلك الجلف الأحمق وهو يسخر مما فعلت، وكيف يُفوّتُ هذه الأصناف من البشر الكثير من نعمة التأمل! هؤلاء الذين لا يستطيعون التقاط الرسائل التي يلقيها الله بين أيديهم ليتعلموا منها شيئاً جميلاً، فينظروا إليها على أنها أحداث اعتيادية لا قيمة لها! طيلة الطريق إلى المنزل تلك الليلة كنت أفكر في عدالة توزيع الألم بين مخلوقات الله! تذكرت كلاماً لابن القيم في كتابه **عدة الصابرين** حول عذاب الأطفال في الدنيا حين يتعذبون من المرض والجوع والحروب ثم يموتون، ما الفائدة من عذابهم إن كان كل الأطفال سيدخلون الجنة سواء تعذبوا أم لم يتعذبوا؟ لماذا، إذاً، يتعذب بعضهم وبعضهم لا يتعذب؟

بحث ابن القيم عن نصوص تفرق بين أجر الأطفال المعذبين وغير المعذبين، والحيوانات المعذبة وغير المعذبة، فجاء بأشياء ليست من نصوص الوحي ولا تقوم بها حجة كدليل شرعي! قال ابن القيم كل شيء إلا الشيء الذي اكتشفته الآن ولم أجده في **عدة الصابرين** ولكن وجدته في عيني تلك القطة!

وجدت أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، وأن أي كائن مخلوق لا يملك إلا أن يستسلم لإرادة ربه الذي خلقه طوعاً أو كرهاً، وأن القدرة التي نمارسها كبشر حال عافيتنا، هي نوع من القوى الخارقة المحضة، ولكن لا نفطن لها لأنها حين تزول لا يستطيع أحد استرجاعها أو إيجاد البديل عنها! كلنا كائنات خارقة في الحقيقة ولسنا بحاجة لأسطورة سوبرمان ولكننا نستخدم قوانا في أشياء اعتيادية تافهة فتحولت قدراتنا إلى قوى تافهة علفية ذات أجندة حمارية!

وجدت أن الله ترك في هذا العالم إشارات صاعقة لا يمكن تجاهلها، تدل بوضوح على أن الدنيا ليست دار عدل ولا دار «وعي كامل»، وأن شدة حبكة تنظيم العالم مع شدة بشاعة مثل هذه الإشارات غير المفهومة للألم والمعاناة، تدل على أنه لا بد من وجود حياة أخرى وعالم آخر تكتمل فيه حبكة الأشياء، وتصل فيه الحقيقة إلى أقصى نهايات تحقيقها.

حين تؤمن بمثل هذا، ستعلم أن هذه الحيوانات التي تموت في الطرقات، وهؤلاء الأطفال الذي يموتون مرضاً وجوعاً وقتلاً، هم من دفع بدلاً منك ثمن هذه القناعة المريحة التي جعلتك لا تأسى على ما فاتك، ولا تقنط من الاقتصاص ممن ظلمك يوماً ما!

وجدت أن العلم لا يحتاج إلى قراءة وكتابة، ولكن يحتاج إلى حدس صحيح وروح شفافة وعقل غير أناني، يؤمن أنه جزء من هذا العالم المتجانس، وأنه بشكل أو بآخر معنيّ بكل ما يحدث فيه!

كلنا مدينون للمُعذِّبين...

نحن لا نشفق عليهم، وإنما نرد لهم ثمن القناعات!

* * *

خالد بن الوليد الذي علمني القراءة!

«إن الحقيقة تأتي على مهل ولكنها تأتي!!»

فليكس فارس

في يوم من الأيام كنت في الصف الخامس أو السادس الابتدائي فسمح لنا الأستاذ أن نستعير الكتب من غرفة كبيرة في المدرسة اسمها المكتبة! دخلناها وكانت أول مرة أدخلها، فوجدنا كتباً موضوعة على الرفوف بشكل أنيق وتلك هي المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بأن الكتاب شيء خاص تفتح له غرف خاصة، ويوضع فيها بشكل أنيق كما يفعلون بالأحذية في سوق المدينة!

دخلنا المكتبة فشعرت بشيء غريب يشبه الدخول إلى مكتب مدير المدرسة، فالهدوء والترتيب والصمت المطبق يوحي بأن لهذا المكان هيبة خاصة! كان صوت أمين المكتبة بانتظارنا: «لا تخرّب يا ولد! اختر كتاباً واكتب اسمك، وترجعه بعد ثلاثة أيام». دخلت فوجدت كتاباً مكتوباً عليه خالد بن الوليد، وعليه صورة فارس على حصان ومعه سيف! هذا خالد الذي كثيراً ما حدثنا عنه مدرس التاريخ؟!. أخذت الكتاب وذهبت إلى البيت لأقرأه في ثلاثة ايام كما تعهدت، فوجدت فيه قصة غريبة لم يحدثنا بها مدرس التاريخ!

تقول القصة بأن الفاروق عزل خالد بن الوليد لأنه قتل أحد المسلمين في معركةٍ ما ليتزوج امرأته!!؟. فنّد المؤلف هذه

القصة ونفاها وجاء بالأدلة، وأن الفاروق عزل خالداً لكي لا يفتتن الناس به فيقال إنما النصر كان بسبب قيادة خالد، وبعد ذلك علمت بأن اليهود اتهموا داود (عليه السلام) بالتهمة نفسها، ولكن ؟

مع كل ذلك بقي في نفسي أثر كبير من هذه التجربة! أثر مفاده أن بعض الكلام الخطير عن بعض أخطر الأشياء والرموز في حياتنا قد يكون موجوداً، حتى وإن كان كذباً، ولكنه موجود ولن تجد من يحدثك به إلا الكتاب.

لا مدرس التاريخ ولا مدرس التوحيد سيحدثك عنه! شعرت أن الكتب فيها من الصراحة والمفاجآت أكبر مما نتخيله. وصار لديّ شعور قوي بعد ذلك أن كل كتاب كبير قد يحوي بين جنبيه عالماً من الدهشة قد يقلب كل مفاهيمي رأساً على عقب!

وبمجرد ما إن جاء وقت استلام الشهادة أخذت جائزة النجاح، «مائة ريال»، وذهبت إلى المكتبة الوحيدة في ذلك الزمان «مكتبة الإرشاد» فبحثت عن أكبر كتاب فوجدت كتاباً من أحد عشر جزءاً فقرأت عنوانه وإذا به **العقد الفريد**، ففتحته، ووجدته يتحدث عن الصحابة والدولة العباسية والأموية، فقلت لنفسي: «هنا ستجدين الكثير مما لم يقله أحد من الحق والباطل»، فاشتريته وقرأته في ثلاث سنوات! كان أكبر وأخطر

تجربه مررت بها في حياتي. تخيل طفلاً في المرحلة المتوسطة يقرأ ما في **العقد الفريد**؟

وبقي لديّ هذا الشعور الذي تعلمته من قصة خالد بن الوليد:

«الكتاب أشجع من يتكلم على وجه الأرض!!" ..

فأحببت الكتاب... وما زلت أحاول أن أتعلم منه تلك الشجاعة...

وأن أجد فيه ما يرضي نهم الدهشة و"السر» خلف كل معرفة معلنة بين الناس، وما زلت كلما رأيت كتابا كًبيراً شعرت بشيء يشبه الشعور الذي ينتابك حين تقف خلف ستار مكتوب عليه «ممنوع الدخول لغير المدعوّين» فتسمع خلفه ضجيجاً وصخباً فتقول في نفسك:

كم خلفك من الأسرار والأعاجيب والمحاذير وكل ما لا أتصوره الآن؟؟!

كانت حادثة بسيطة... لا يذكرها أحد..!... ولا يعلم بها أحد...

ولكنها غيرت حياتي!

❊ ❊ ❊

قُبلة بكّور!

«الطفل والد الإنسان!»

وليام وردزورث

بكّور هو الاسم الحركي لابني الأكبر «بكر"! بكّور يشبهني كثيراً ويشبه طبعه طبعي، اعتاد مثلي في هذه الحياة أن يرى بعينيه الصغيرتين أقل مما يستحق وأكثر مما ينبغي! قررنا ذات يوم الذهاب إلى «البر» فأخذنا جميع ما نحتاجه، وحين وصلنا إلى المكان المحدد، أشعلنا النار وصنعنا الشاي والقهوة، وكان بكّور في صراع دائم مع أخيه الأصغر «عمر»، لكن هذا الصراع يختفي حين نخرج خارج المنزل.

بكر عمره أربع سنوات، وعُمَر سنتان ونصف، وفي غفلة منا توجه عمر إلى علبة ماء صغيرة كنا قد وضعنا فيها شيئاً من الكيروسين «الكاز» لنشعل به النار، ففتح عمر العلبة وشرب منها قليلاً!. أخذ عمر بالسعال والشهيق، فانتبهنا له، فهرعت إليه أمه وجدّته وأنا، وكل واحد منا يحاول فعل شيء لينقذ به الموقف! قامت أمه من دون تفكير وأسقته شيئاً من الماء، بينما جدته تصرخ أعطوه قليلاً من الزبادي وهي ممسكة بيده، وأنا ممسك برأس عمر، أنظر إلى عينيه هل تبدو عليه أي علامات غريبة أو إغماء!

كان الجميع في حالة استنفار، ووجه عمر تبدو عليه علامات الخوف ويشعر بعدم قدرة على الكلام وكان بكّور

يلاحظ ذلك ويقف حائراً ينظر إلينا! بكر يحب عمر كثيراً وكان في كل مرة يتشاجر معه أو يمارس عليه دور الأخ الأكبر ننهره، فيتوجه مسرعاً لعمر فيقبّله فيسكت وتنتهي المشكلة! لم يستطع بكّور الوقوف متفرجاً وهو يدرك أن عمر قام بفعل شيء خطير يهدد حياته، وأن الجميع يحاولون مساعدة عمر!

لم أنتبه إلا وبكّور ينطلق ودموعه في عينيه منتهزاً فرصة ابتعادي قليلاً عن وجه عمر فأمسك به وقبله على خده وعاد مسرعاً إلى مكانه، فوقف يراقب عمر من جديد! لم يلاحظ ذلك أحد! وهذه هي مشكلتي الأزلية! أني ألاحظ الأشياء المؤلمة التي لا يلاحظها الآخرون! بكّور يحاول بقبلته أن ينقذ عمر، أن يصلح الوضع، أن ينهي المشكلة كما ينهيها كل مرة! كان كل مرة يقبل عمر بعد الشجار يعود عمر ليضحك ويمارس حياته بشكل طبيعي وهو الآن يشارك لإنقاذ عمر لعله يعود إلى حياته الطبيعية بالطريقة الوحيدة التي يعرفها والتي يتمنى أن تنجح هذه المرة أيضاً، كما كانت تنجح كل مرة... «قبلة على خده»!

كان وجه بكّور المليء بالشفقة والخوف والحب لعمر قد آلم قلبي! هذا الولد إن عاش بكل هذه الطيبة والنقاء والصدق مع الآخرين سيعاني كثيراً وسيتألم كثيراً! نسيت أمر عمر وبقيت أنظر إلى بكّور وهو منهمك في مراقبة عمر، وهل يستجيب

لصراخ أمه، وهي تقول: «عمور قل ماما! عمور قل ماما! عمور تقدر تَكْلم؟!».

عاد عمر إلى طبيعته، ولم يستغرق الأمر إلا بضع دقائق لينتهي، ولكن بكّور بقي طيلة اليوم يركض أمام عمر ويراقبه لكي لا يرتكب حماقة أخرى، وكان يحضر له الحلوى والبطاطس والماء، ويحمل نعليه لكي لا تضيع ولم يلاحظ ذلك أحد غيري!

أنا أيضاً أمارس «قبلة بكّور»! كنت وما زلت أظن بأن الحب هو علاج كل شيء وأنني مهما تصرفت، ومهما بدر مني تجاه الآخرين يكفيني فقط أن أخبرهم أنني أحبهم فعلاً، فينسون كل شيء، ويعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي! ولكن الواقع غير ذلك! فالناس لا تكتفي بالحب ولا تقبل به كعذر لكل شيء.

الناس يقبلون الأكاذيب الجميلة أكثر مما يقبلون الحب الصادق حين يأتيهم في وقت لا يحتاجونه فيه! الحب قد يعني لك كل شيء في الحياة، لكنه لا يحقق للآخرين كل رغباتهم، وطالما أن للحب نسخاً مزورةً كثيرة، فبالإمكان الاستغناء عنك وعن حبك بكل سهولة حين يتوفر شخص آخر يقدم لهم ما يحقق رغباتهم، مع نسخة فاخرة من حب مزوَّر!

* * *

لأجل الحب يا ميمي!!

«إن لم يكن في القلب حزن خَرِب!»

مالك بن دينار

عدت مرة إلى المنزل وكنت قد وعدت ابنتي ميمي بأن أحضر لها بعض الألعاب والحلوى حين عودتي، فنسيت! استقبلتني بفرح صادق وشوق وهي تنظر إلى يديّ فلم تر شيئاً، فأخبرتها أنني نسيت! غضبت وصارت تبكي، فنهرتها، وكنت ذلك اليوم سيىء المزاج كما أنا دائماً، فسكتت وذهبت لغرفة منفصلة وجلست فيها! أتيتها وكلي أسف واعتذار لعلها تغفر لي وتتنازل عن وعودي لها، فقالت وهي تجمع يديها الصغيرتين في حضنها وتنظر إليهما:

ـ «أنا ما أغليك! أنا زعليت عليك!!».

لا أدري من أخبر ميمي أن الكبار يحتاجون إلى من يحبهم أكثر من الصغار، لكنهم يستكبرون ويتعالون على رغبتهم هذه! لهذا تجد أن كبار السن هاجسهم الأول والأخير «هل تحبني عائلتي؟». يُمضي الانسان كل حياته بحثاً عن معانٍ يطمئن إليها، أو ممارسات تشعره بالغنى والاستغناء عمن حوله، ولكن في النهاية يدرك أنه لم يكن يبحث إلا عن الحب والاهتمام الحقيقي من الآخرين، عن الحب في أبسط صوره!

لم أستطع تجاهل حزن ميمي وأنها «ما تغليني!» فخرجت

وأحضرت كل ما وعدتها به! الحزن بداخلي وبداخل من أحبهم يعيدني إلى آدميتي بطريقة سحرية، فأجدني أفكر بطريقة مختلفة واعتبارات جديدة لا تكون في بالي حين أكون في المنطقة الرمادية الباهتة الخالية من عنفوان المشاعر، تلك المنطقة التي تقتل القدرة على ممارسة الموهبة وتحصرني في إطار علفي بحت وتحوّلني إلى رجل آلي!

الفراغ يعلّمنا الفلسفة، والحزن يعلمنا الحكمة، وحين يجتمع الفراغ والحزن نتعلم الأدب! الحيوانات لا تستطيع فلسفة أحزانها ولا حتى أن تكتب فيها قصيدة. أجمل ما في الحزن أنه يشعرني أنني بشر وأنني قادر على أن أبني من جراحاتي قصوراً من المعاني المغايرة لكل شيء عادي، والخيالات والأساطير الشاعرية الخفية التي تبعثها حالة الالتصاق بجوهر التجربة.

الذئب والأسد والكلب، عندما يصاب أحدها بجرح في جسده يجلس يلعق جراحه فتنتهي «قصة الجرح» هنا! لن يفكر الحيوان بأن هناك ثمة ظلماً وقسوة وصراعاً ومؤامرة وخبثاً وخديعة وخيبة ولعنة ونَحْساً، وكل الأشياء المثيرة لجنون هاجس إعادة فهم العالم من جديد!

عندما يقتحمك الحزن فيغصّ حلقك بدمعة تكاد أن تفضحك وكأن كل من ينظر إليك يراها! تحسب أن حلقك قد

تورم من العبرات المحتقنة فيه حتى صار كحلق طائر بحري ابتلع لتوه سمكة أكبر منه! عندما تجثم عليك الخيبة وتشعر بأن حتى الحجارة تقف في طريقك لتتعثر بها وحتى الريح تتعمد أن تهبّ لتملأ عينيك وفمك بالتراب، وأن كل شيء في هذا العالم صار يتنكر لك، حتى صوت أزيز باب قلبك الخاوي بات يحاول أن يخيفك بأعلى درجة ممكنة!، عندها ستعلم أن الحزن «نبع كبير» لأقوى الدوافع الذاتية للاستقلال والصمود وتمييز الأشياء من حولك وإعادة ترتيب علاقتك مع كل شيء يخصك!

الحزن يصنع الرغبة في التحرر، التحرر من الجرح والجارح، التحرر من الأشياء التي تقتحمنا من دون إذن منا لتفسد علينا أنفسنا، التحرر من عناصر الحتمية والإرغام، فتسمو الأنفس وينتشر الخيال وتبرز على شفاه الحزانى مصطلحات راقية مثل: الحرية، النجاة، الخلاص، الماورائية.

كلما زاد الحزن زادت نزعة السمو على «القيد والحتمي» حتى يبلغ ببعضهم أن يعلّق المشنقة لنفسه في سقف منزله أو يطلق الرصاص على رأسه ليتحرر من أقرب الأشياء لديه، جسده وقلبه وحواسه الخمس!

لأجل ذلك كله، تجد أن في شخصية «الإنسان الحزين» بعداً إنسانياً خفياً وهالة من المعاني العائمة في بحر كبير من

«الآدمية» والشعور والحس والمبدأ. تجد له جاذبية غريبة لو تمعنت لوجدت أنها جاذبية «النكهة الإنسانية» في شخصية وملامح ذلك الحزين!

و يكفي أن تقول لي ابنتي الصغيرة ميمونة: «أنا ما أغليك!!» لأجد نفسي حزيناً أفكر بكل ما أوتيت من عاطفة: ما قيمة الدنيا بلا حب؟!

* * *

كنت أتابع الدودو!

«لا يمكن ملاحظة الجمال بنظرة متسرعة!»

جان كوكتو

دخل «بكر» الصغير إلى حياة ميمونة وسرق منها أمها! لا أحد يدرك ما الذي تمر به ميمونة الآن، أحد مثلي! ألمس على قسمات وجهها البريء مسحة حزن ونبذ وهي تشير بإصبعها الصغير إلى أخيها الجديد وتقول: «نونو»!. تعلم ميمونة أن التغيرات الحادثة في البيت هي بسبب الـ «نونو» وأن هناك حدثاً غير قابل للتغير قد وقع، وأن هذا الشيء الصغير الذي لا تدري من أين جاء كان شيئاً يشبه الرسوب في مادة لم تتوقع أنك سترسب فيها. ومع هذا كله نمارس عليها صلافة الكبار وجلافتهم، ونقول لها «بوسي النونو!... النونو حلو؟"... فتهز رأسها الصغير وتقول: «إيه!!».

أردت أن أريها أنني ما زلت مهتماً بها، فقلت لها: «نروح للملاهي؟» ففرحت وقالت: «بلاهي؟!!». فقلت: نعم! وهي تنطق كلمة ملاهي هكذا «بلاهي» وأظنه يليق بها فعلاً فهي مكان مناسب للكبار لممارسة البلاهة بشكل محترم!

لم يكن هذا طبعي! لم أكن أحب اللعب حتى في طفولتي، فكنت أحصل في المواد العلمية على درجات كاملة بينما درجتي في التربية البدنية متدنية! كان المعلم رائد الفصل يقرأ شهادتي ويقول: «إنتا ما بتعرفش تجري والاّ إيه؟!!». نعم كنت أعرف

التفكير ولا أعرف الجري ثم كبرت فتعلمت الكتابة ولم أتعلم الحياة!

استطاعت ميمونة منذ ولادتها أن تغير الكثير من طباعي وأن تحولني إلى مهرج كبير شبيهاً بشخصية الكرتون «بوزو!!»....

كانت ميمونة تلاحظ أننا وصلنا إلى «البلاهي» على مسطحات خضراء وضعت فيها شاشات كبيرة يتابع الناس من خلالها كأس العالم الذي لم أعلم بقدومه حتى رأيت بعض الأصدقاء اليوم يمسكون بتلابيب بعضهم البعض! كانت ميمي تصرخ: «بلاهي بلاهي!» وكان الشباب يتابعون فريق إيطاليا الذي يلعب ضد فريق آخر، وكان كل شخص من حولنا يشعر بكمية من الحزن والسعادة، تبعاً لما يلاحظه من الأشياء التي يصرف اهتمامه إليها!

في الحقيقة، ليست المشكلة في وجود المشاكل أو حدوثها كقدر فعلي، ولكن المشكلة تبدأ عندما نلاحظ وجود ما لا يروق لنا وقد يكون موجوداً أصلاً، وكنا سعداء قبل أن نلاحظه، فهو ليس مشكلة مستقلة في حد ذاته! نحن نفرح ونحزن على قدر استطاعتنا في ملاحظة ما يعجبنا وما لا يعجبنا، وعندما تكون لديك «ملكة صناعة الأعاجيب» فلن تكون حزيناً على أي

حال! وككل رحلة خارج المنزل، فحين تصل المكان المقصود، سينصرف كل واحد لما يجذب اهتمامه، فكانت ميمي تلعب وكنت أنا أمثل دور الأب الاجتماعي الذي يلعب مع أبنائه، ولكنني مللت سريعاً فجلست وأخذت أراقب السيارات العابرة للطريق المجاور لنا!

لاحظت وجود خنفساء صغيرة، أو «دودو» حسب قاموس ميمونة، وكانت تعبر الطريق المليء بالسيارات تريد الوصول إلى ضفة الرصيف الآخر! كنت أشعر بأن هناك ثمة عملية انتحارية تحدث الآن تشبه شعور من تخلل صفوف الغزاة وهو يتحين لحظة سحب الصاعق الذي يربطه بالمتفجرات تحت قميصه! كنت أشعر بمعاناتها وأنها الآن تمر بلحظات حرجة للغاية وميمونة منشغلة في «البلاهي» والشباب يتضوّرون تشجيعاً، ويصرخون لأجل أناس لا يعلمون بوجودهم على كوكب الأرض، ولا يهمهم أن يعلموا!

كانت الخنفساء تسير ولا تلتفت ولا تتوقف وهالات العناية الإلهية تدور في خاطري!.... كيف سيفعل الله بها؟.... هل سيكتب لها النجاة؟!....

الحكاية ليست حكاية خنفساء، ولكنها «حكاية فكرة» ، حكاية كائن حي ومصير يشترك فيه كل الكائنات، وهو الموت،

ثم بما أن كل إنسان حر في أحاسيسه، فمن حق هؤلاء المشجعين أن يتبرعوا بها لكأس العالم، وأنا سأتبرع باهتمامي لهذه الخنفساء! هي ستدفع حياتها ثمناً لهذا المشهد المؤثر، بينما لاعبي كأس العالم سأدفع لهم ثمن كروت القنوات الرياضية، ثم يحصلون هم على الدنانير ويذهبون بعد المباراة للاستراحات، وأعود أنا إلى «البلاهي!».

لا أحد يستطيع الهرب من عقله! حتى وأنت في «البلاهي» ستجد أن عقلك وطريقة تفكيرك تفرض نفسها! الخروج من المنزل لا يعني أنك ستكون في فسحة وترويح عن النفس ولكن الخروج من طبعك المستمر هو الفسحة الحقيقية مهما كان ذلك الطبع!

كل هذه الأحاسيس التي حولنا هي ليست وليدة «الوجود والعدم» ولكنها وليدة الملاحظة لا أكثر، سواء ميمونة مع «البلاهي» أو المشجعون مع الفريق الإيطالي، أو معي أنا والخنفساء! لهذا لو راجعنا أنفسنا، فنجد أن أكثر آلامنا وأفراحنا هي ليست نتيجة لصناعة ذاتية للأشياء نفسها، ولكنها نتيجة لتورطنا بملاحظة أشياء الآخرين والوقوع في شرك فهمها أو تفهمها أو حتى محاولة تجاهلها!

عادت ميمي من «البلاهي»، ويفترض بي أن أعود إلى

المنزل سعيداً منشرحاً بعد أن هربت من نفسي إلى «البلاهي» لمدة ساعتين أو أكثر، ولكن للأسف لم يكن ذلك صحيحاً!

عدت وأنا أفكر بتلك الخنفساء! الكثير من تصرفاتنا وأقدارنا لا تختلف عما كانت تمر به الخنفساء! المرض، الفيروسات، حوادث السير، الصدف العشوائية المؤثرة في حياتنا، أشكالنا التي خُلقنا بها، شركاء حياتنا، وظائفنا، والكثير الكثير من مثل هذه الأمور كانت تقف وراءها قدرة خفية هي التي حددتها من دون غيرها، وجعلتها واقعاً من دون أن يكون لنا حرية مطلقة فيها، ثم نحن الآن نعيشها ونتأثر بها!

هناك، إذاً، عنصر خفيّ يصاحبنا!....

فنحن لا نقبل مطلقاً...

ولا نرفض مطلقاً...!

لا نربح مطلقاً ولا نخسر مطلقاً...!...

لا نصل مطلقاً... ولا ننقطع مطلقاً...!!

فعلى كل إنسان أن يكتشف الجزء «الدودو» في حياته، إذاً...!

* * *

عقل يحتضر!!

«كثرة العمل لا تقتل أحداً..!

ما يقتل هو كثرة التشتت والقلق!!»

تشارلز إيفانز

أجمل ما في شخصية الإنسان الانطوائي المتقوقع المتبوتق المتشرنق ...إلخ إلخ! أنه يعيش بتصنيف سهل جداً للبشر من حوله، فهم ينقسمون إلى صنفين فقط، لا ثالث لهما: الأصدقاء، وهم شخص واحد فقط هو نفسه التي بين جنبيه، والصنف الآخر هم الأغراب، وهم بقية سكان الكوكب!!

يا إلهي كم هذا رائع!!....

هل رأيتم أجمل من هذا؟!!..

حدث أن رنّ هاتف العمل وإذا به حارس البوابة، يقول: «عندي رجل يقول إنه صديقك، ويريد...» فقاطعته مباشرة، وقلت: «ما أعرفه!!». ذهل حارس البوابة من قدراتي الخارقة بحيث استطعت الجزم أنني لا أعرف الشخص حتى قبل أن أقابله! فقال بذهول: «ياخي أنت ساحر!! كيف عرفت؟!» فأخبرته بنظريتي الانطوائية في تصنيف البشر، فأعجب بها أي إعجاب!

المهم طلبت منه السماح له بالدخول فدخل علي، وإذا به شخص قد قرأ كتابي **تحقيق خلافة الإنسان على الأرض** ويقول بأنه بحاجة لرؤيتي!

كان اسمه الدكتور سيد، طبيب مثقف وملتزم دينياً، من اخواننا المصريين. تكلم حول الكتاب، وتكلم حول كتاب ينوي هو تأليفه وقد رأيت الشيب في عارضيه، والكلام الكثير في عينيه، وإذا به يعاني احتقاناً معرفياً لكثرة ما قرأ، ولم يوفق إلى إنتاج شيء على خلفية ذلك سوى مشروع أوراق يجمعها ويحتفظ بها، تكلم عنها وقد تبلغ المئات!

الدكتور سيد لم يكن حالة نادرة، فغيره كثيرون، ولكن تداركه لنفسه كان خطوة جيدة، خصوصاً وأنه يبدو عليه علامات حب التشعب والتعمق وجمع أطراف المشاهد. وبغضّ النظر عن انطباعي الشخصي تجاهه، غير أني رأيت فيه نسخة من كثير من الكتّاب الذين سيتطور بهم العمر إلى أن يصلوا إلى مرحلة لا تقبل «اللملمة» والتوفيق بين شتات معرفي، وخواطر كثيرة، تتردد يوما بعد يوم، ولا تبرح البال ولا تقبل أن تكون شيئاً في الوقت نفسه!

قال لي: لديّ أفكار كثيرة! لدي أشياء كثيرة!

ثم سكت ولم يستطع وصف نفسه أو ما يدور بداخله!

قلت له: ولكثرة ما لديك صرت تشعر أنك لا تعرف شيئاً على الإطلاق!

نظر إلي بحسرة، وقال: تقريباً!

لم أناقش الدكتور سيد فيما يمر به، واكتفيت بأن أكدت له أنه يمر بمرحلة «احتضار عقلي»، فالمعرفة مثل الزمن، كلما زاد مرورها على العقل من دون تقييد، اقترب العقل من حالة «العجز»، كما يعجز الجسد لكثرة مرور الزمن عليه!

المعرفة لمجرد المعرفة أمر مؤرق وفيروس يشتّت خلايا الدماغ ويبعثر الذاكرة ويمزق القاعدة الأصلية التي يقوم عليها كل ما سواها من تفريعات، ولهذا لا بد من معرفة يتم فرزها في حينها وترتيبها في خلايا الشعور قبل أن تقف في غير مكانها، فلا هي تعمل بشكل صحيح ولا هي تفسح الطريق لسواها!

سررت بالدكتور سيد وحزنت بسببه، وما زلت أنتظر مسودة كتابه الذي سيريني إياه والذي أتمنى فعلاً أن يخرج، وإلا فإنها خيبة كبيرة أن تقرأ أربعين عاماً ثم تموت من دون أن تستطيع توفيق ما في نفسك في كتاب من قطع صغير أو متوسط!

* * *

لوحة حمراء مومضة!!!

«أليس هذا أمراً غريباً ؟!!

الناس يخشون الموت أكثر من الحياة... مع أن الحياة تؤذينا أكثر!!»

جيم موريس

قبل نهاية الفصل الدراسي، بشهر أو شهرين، كنت أجلس في غرفة السكن في جامعة البترول والمعادن، فعاد صديقي عبد الحميد إلى الغرفة بهيئة مضطربة، فوجهه محمر وعرقه يسيل، ثم جلس واجماً لم يتكلم، ولم أتكلم، فكنت أتساءل عن حاله الغريبة! قفز وفتح الخزانة وأخرج ثيابه ووضعها في كيس!

فقلت: «وش فيك عبدالحميد؟؟».

فقال بطريقة سريعة وهو يتلعثم من تراكم الكلام في صدره:

«دكتورنا بالكلية مات! طعنه واحد من الطلاب بسكين، فتح المظاريف بالمكتب يوم تهاوشوا ومات! تصدق؟ معه دكتوراه من كندا أخذها قبل سنتين، والحين مات!»...

ثم ضحك ضحكة هستيرية ساخرة!

فبادرته:"طيب وش فيها كلنا نبي نموت بيوم من الأيام؟!».

فجلس وضم الكيس إلى صدره، وقال:

«يعني أدرس وأجلس هنا بالشرقية ويجيني واحد يذبحني عقب كل هالتعب؟؟ خلني أروح واختصرها آخرتها مدري وشلون أموت ليش أتعّب حالي!»...

حاولت أن أثنيه عن قراره وتحدثت معه عن الدنيا وعن صبر الرجال وأن أهله ينتظرون منه الكثير فصار ينظر الي كالطفل الذي ينتظر وجبة طعامه ثم قال لي، والدمع في عينيه بنبرة خاشعة أسمعها لأول مرة منه:

«بالله جميل واللي يرحم والديك، قل لي أنا مسوّي حاجه غلط بحياتي؟؟ أحس أني مذنب بس مدري ليش كأني مسوّي حاجة كبيرة!!».

ثم بكى وبكيت معه، والصحيح أني بكيت عليه، انتهى عبدالحميد!

نعم انتهى عبد الحميد! هرب عبد الحميد! ضحية أخرى من ضحايا الجامعات والفشل الدراسي، أصيب بالاكتئاب وانتهى الأمر!

تجاوزت الأزمة بصعوبة ومرت الأيام وعادت حياتي لطبيعتها وفي عصر يوم جميل كان أصدقائي يجلسون في غرفتي في سكن الجامعة وقد صنعنا قهوة عربية، وكل واحد منا يهيم في وادٍ، فهذا يتصفح كتاباً، وهذا قد استلقى ورفع قدميه على الجدار المقابل، وهذا يجلس خلف الكمبيوتر، وفجأة طرق أحدهم الباب فخرجت. كان أحد أصدقائي، وكان هذا الصديق

يفتقر لكل أساليب اللباقة الانسانية، فقال مباشرة:

«خويك محمد صار له حادث ومات!».

فصرخت: «لا ياشيخ!!»...

وأخذ قلبي ينبض في معدتي، ومع أن هذا الرجل ليس صديقاً قريباً جداً ولكنه كان صديق طفولة! وكان قد تزوج قبل ستة أشهر على صغر سنه، وسكن في شقة مستقلة حتى قبل تخرجه، فكنت أظنه سيكون أسعد مني، وأنا أكابد عناء الجامعة والتعثر الدراسي! لا أدري لماذا تذكرت نظرية عبد الحميد:

«طالما راح أموت ومدري وشلون أموت ليش أتعّب حالي؟!».

عدت إلى الغرفة وأطفأت المسجل الذي كان يغني بصوت مرتفع ووجهي فيه خبر قاتم ولم يتجرأ أحد على السؤال!

فقلت: «خوينا محمد، يقولون صاير عليه حادث!»...

فقمت وخرجت ففهموا الأمر ولم أعد إلا في المساء! الآن بدأت أفكر فعلاً بشيء اسمه «العالم الآخر» الذي قد ندخله في أي لحظة، وأنه لا يوجد شيء اسمه «الوصول إلى نتيجة سعيدة»، فكل النتائج تلغيها نتيجة واحدة، اسمها الموت!

خرجنا في نهاية الأسبوع إلى كورنيش العزيزية في الخبر

وكلنا نتحدى بعضنا البعض فيمن سيركب الحصان من دون أن يقع، وعندما اقتربنا من الكورنيش رأينا سيارة شرطة واقفة وأناساً مجتمعين وفرساً تتلوى على جانب الطريق، ترفع رأسها وتضربه بالرصيف!، اقتربنا فقال الشرطي:

«روح روح امشي قدام!»....

كان متوتراً للغاية فتجاوزناه وإذا برجل واقف بجانب سيارته وعليها بقايا دماء فسألنا أحد الواقفين ونحن في السيارة:

«هذا صادم الفرس؟»...

فقال: «ايوالله صدمها وعليها المسكين ذا!»...

فنظرنا إلى ما وراء سيارة الشرطة وإذا برجل لا تظهر إلا رجله وقد غطوه بشرشف كان مع أحد الواقفين، كان الرجل قد مات...

قلنا: «كيف جا هنا؟»...

فقال: «ما كان يعرف يخيّل، وركب يبي يوري عياله ركوب الفرس وهربت فيه على الطريق السريع وصدمته السيارة والمسكينة زوجته ـ فأشار إلى جيب سفاري وراء الأشجار ـ كانت تناظر هي وعياله!»....

نظرت إلى حيث أشار، وإذا بنسوة يقفن عند باب السيارة

يتحدثن مع المرأة والأطفال مع بعضهن وراء السيارة لكي لا يروا أباهم، يساندنها إلى حين قدوم بعض أفراد عائلتها! نظرت إلى الأطفال وشعرت برغبة بالبكاء! كم هو مؤسف أن يتحول الفرح فجأة إلى مصيبة لم تكن بالحسبان، ثم لا تجد رجالاً يقفون في وجهها ساعة وقوعها! أخذت يدي ترتعش من الغضب لأسباب لا أعرفها فقبضت على ناقل الحركة بعنف ودفعته للأمام، فحركت السيارة ومضيت وصديقي يقول: «هذا خبل هذا! يركب الفرس جنب الطريق؟». مضيت ولوحة اعلانية تومض في مخيلتي كتب عليها:

«طالما راح أموت ومدري وشلون أموت ليش أتعب حالي؟!!».

أصبح الموت والرحيل هاجساً ملحّاً تلك الأيام، ولا أعرف سبب هذا التتابع الغريب! صارت حوادث الموت تتوالى من حولي وبطريقة غريبة، فبعد هذا بمدة سقط عامل بنغالي من فتحة التكييف المركزي في أحد المباني الأكاديمية، فخرّ من الطابق الأعلى ليسقط فجأة بين الناس في الصالة ويتحول رأسه إلى شقوق تنبعث منها رائحة العالم الآخر، ولو كان غيّر في سيرته الذاتية كلها قرار خطوة بمقدار ٥٠ سم لما حدث له كل هذا!

لست بحاجة لفشل كبير، إذاً، لكي أحظى بنهاية مؤسفة كبيرة! وصار هاجس اللامبالاة بكل شيء يتسلل إلى صدري من حيث لا أعلم! لم أعد أبالي بنهاية كنهاية عبد الحميد لأنني شعرت فعلاً بأن عبد الحميد كان يفكر بشكل صحيح!

«ليش أتعّب حالي»....؟!

* * *

منطقة خضراء!!

«أحب الإنسانية ولكني أكره الناس!!»

إدنا سنت ميليه

لم أكن أثناء دراستي في الجامعة أعتمد على أي أحد، وكنت أواجه كل شيء بمفردي، حتى المذاكرة! لا أطيق المنة ولا الشعور أنني أعيش على تعب الآخرين. وفي يوم من الأيام ذهبت لأنقل جدول الاختبارات النهائية، وبسبب تشابه رموز يوم الثلاثاء والخميس في اللغة الإنكليزية نقلت الجدول بطريقة خاطئة فذاكرت المادة التي سأختبر فيها يوم الخميس بدلاً من التي سأختبر فيها يوم الثلاثاء! دخلت القاعة فلم أجد أحداً، فعدت للجدول فاكتشفت أني أخطأت في نقله، فعدت لغرفة السكن مصدوماً بهذا القدر الغريب الذي حطمني بحرفين!

رسبت في ذلك الفصل في مادتين، فأصابني ذلك باحباط شديد أثر علي في الفصل الذي يليه، فحذفته مبكراً وجلست في الجامعة ذلك الفصل بلا مواد ولا مكافأة ولا طمأنينة! تجاوزت الأمر على كل حال، ثم سكنت في غرفة بجانب سكني القديم بعد أن تم حذف اسمي من غرفتي السابقة. كانت الغرفة الجديدة خالية، وقد حصل عليها طلاب من أصدقائي في الجامعة، ثم سكنوا في شقة في الخبر وتركوها. كانت الغرفة باردة وخالية من كل شيء ولم أكن افكر في جلب أي شيء

إليها، فقد اكتفيت بأثاثها الأصلي الذي تعطيه الجامعة، سريرن وطاولتين وكرسيين وخزانة ملابس!

صرت أكره الذهاب لأحد من الأصدقاء لأنه يذكرني بأني لست بطالب منتظم، ولأن حديثهم كان أكثره عن الدراسة. كنت قد قررت الغرق في الكتب لكي لا أتذكر ولا أفكر، وكانت الروايات هي الشيء الأمثل لعزلي عن كل شيء حولي، فكنت أقرأ في كل يوم رواية حتى صارت تكلفني أكثر من الأكل والشرب!

أذكر في ليلة من الليالي، انتهيت من الرواية في الحادية عشرة ليلاً وكانت سيارتي مع بعض الأصدقاء، فلم استطع الانتظار حتى يعود في الواحدة تقريباً فذهبت إلى سوبرماركت النخيل على مدخل الجامعة على قدميّ من آخر سكن الطلاب، وهي مسافة تقارب سبعة كيلومترات ذاهباً وعائداً، كان لديهم قسم للروايات والكتب والمجلات.

وجدت في السوبرماكت رواية أجنبية مترجمة يبدو أنها من الأدب العالمي وعليها صورة غلام، فاشتريتها واكتشفت فيما بعد أنها قصة شاب كان يتعرض لتحرشات جنسية من قبل القساوسة في معهد ديني كَنَسي وأنه كان يعاني عقدة الكبت والسجن في معهد اللاهوت ليخرج في النهاية ويبيع الناس الجنة!

قرأت في هذه الفترة كثيراً وكان ذلك أمثل حل للقضاء على الشعور بالفراغ وقلة الحيلة وكذلك هو عزاء كبير عندما تدخل في تفاصيل مشاكل كثيرة قد تكون أكبر من مشكلتي البسيطة التي كنت أحملها أكثر مما تحتمل، لمجرد أني لم أعتد هذا النوع من المشاكل!

وكلما اتسع خيالي بالقراءة والتأمل زاد تضاؤل شعوري بالوجود وزاد تشتتي وانعدم تعلقي بالزمان والمكان، ولم ألاحظ أنني خرجت من مرحلة صراع علاقتي بالمجتمع حولي إلى حلقة أكبر ضياعاً وأكثر وحشة هي علاقتي مع الكون كإنسان! إني الآن أعاني من دون أن أدري من الشيء الذي لأجله صنعت البشرية كل موروثها المعرفي منذ أن عبد الإنسان الشمس والقمر إلى أن عبد الجنس والدولار، إنه «القلق الوجودي»! إنه الوقوف المباشر أمام تلك الكلمة التي أنجبت نصف الفلسفة... «ليه؟»!

لم تعد الجامعة شهادة، ولم يعد إثبات الوجود وظيفة وزوجة، ما الفائدة في أن أكون حماراً آخر يحمل على ظهره ما تحمله بقية الحمير؟ الأهداف نفسها، والهموم نفسها، والممارسة نفسها، والنهايات نفسها؟ هكذا تحدثني نفسي كلما شعرت أنني أسلك طريقاً موحشاً لم أتصور أنني سأسلكه يوماً ما!

في هذه الفترة الحرجة تعلمت الخوض في جوهر التجربة الإنسانية لمختلف أصناف وأجناس البشر من خلال الروايات والكتب فاكتشفت عالماً جديداً! قرأت كتاب **قصة الفلسفة** لـ ويل ديورانت للمرة الثانية وكنت قد قرأته في السنة الأولى لي في الجامعة فقلب قناعاتي رأساً على عقب، فهجرت الكتاب حينها!

وجدت عالماً آخر جعل الناس يترجمون كلام الصيني والأمريكي والهندي ثم يقرؤونه، عالماً من البشرية التي ليس فيها أفخاذ وصدور ولا رقص ولا مال، ولا فتيات منقبات يلهث خلفهن الرجل متسولاً قربهن أمام خلق الله في الأسواق بكل وضاعة، ليثبت لنفسه أنه رجل يستحق الاهتمام! عالم صنعه أناس مثلي يجلسون في غرفهم ويفكرون بالنيابة عن الآخرين!

كنت أظن بأن التفكير كثيراً عمل سيّىء وإذا به توضع له الجوائز ويجتمع حوله الناس، وكنت أحسب أن الثوب والغَترة تعني أني لن أتمكن من اتخاذ صديق لا يرتدي مثلهما، وفجأة وجدت همنغوي في **وداعاً أيها السلاح** يذم الحرب، ويقرف لمشهد القتلى الذين تورمت وجوههم تماماً، كما أقرف. وإذا ببرونوسكي في **الشوارع العارية** يصف كيف يتسلل الفتى الإيطالي من نافذة غرفة عشيقته خوفاً من أهلها كما يتسلل العشاق في مدن الشمال!

وجدت ألبير كامي في رواية **الغريب** يتساءل عن مصير العالم، وعن وجود الله، ويقف في وجه القساوسة بأسئلة كبيرة لا تختلف عن التي في صدري، وإذا بالعجائز الروسيات في روايات دستوفيسكي يرددن أدعية عجائز البدو لأولادهن، نفسها، حين سرقت الشيوعية الأطفال من أمهاتهم! هناك شيء مشترك بين البشر غيّبته عقلية الخصومة بين الأمم وهواجس «الكائن الآخر»! شيء اسمه «المعرفة الآدمية»، اسمه الإنسانية المحضة!

نعم! لقد حذفت الفصل الدراسي تلك السنة، ولكني حصلت على فصل دراسي آخر هو الذي بقي لي من تجربتي الجامعية! فصل ما زلت أعيش به وأواجه به صدمات الحياة ونكباتها حتى الآن! في تلك المرحلة من حياتي، بالذات، أدركت لأول مرة أن الحياة بدأت تعاقبتي بسبب طريقتي في التفكير، وعلمت أن الأمر لن ينتهي هنا! علمت بالتجربة الصادقة أن الحياة ليست صديقة لكل الناس وأنها هي الدكتاتور الأول قبل فرعون وهامان والنمرود وهيتلر! هي عدوتنا بقوانينها الطبيعية الحتمية وماديتها التي ترغمنا على التخلي عن صفاتنا التي نحب لأجل كسب ود الحياة، والركض باتجاه الريح والسباحة إلى حيث يجري النهر بخيره وشره، فقط لكي نصل!

الآن أجدني شخصاً آخر! الآن أجدني أبحث في داخلي

عن «المنطقة الخضراء» التي يجتمع فيها كل البشر على الخير رغم حواجز الاختلاف المضروبة بينهم كجدار برلين!

نحن نسخ من أصل واحد تتحدث إلى بعضها!....

نسخ تعيش بالمكونات نفسها وتمر بالتجربة نفسها وتعاني الأشياء نفسها وتواجه المصير ذاته!.....

* * *

لاجئ اجتماعي!

«الحرية ليست من منجزات الحضارة...!

الحرية كانت في أقصى درجاتها قبل نشوء أية حضارة!!»

سيغموند فرويد

قال لي ذات مرة: «أنت مخك كبير، بس عيبك أنك بتستهبل على كل حاجة حتى على نفسك!». طبعاً سررت برأي صديقي المصري الأستاذ فؤاد ولم أحزن لكمية التهزيء التي كالها لي طالما أنه اعترف أن «مخي كبير!». أردت أن أتظاهر أمامه أني «أحترم نفسي ومخي الكبير!» فأخبرته أنني سأقوم بتأليف كتاب يوماً ما! نظر إلي وقال: «إلحق روحك قبل ما تخلّف ولاد، وقبل ما يبقى لك صحاب عمل! شويَه شويَه ومش حتعرف تكتب اسمك!». أخذت النصيحة على محمل الدعابة، ولكن بعد أن غرقت في بحر الحياة الاجتماعية وودعت حياتي الجامعية أدركت صدق ما يقول!

أمشي في أمان الله، وفجأة اكتشف أن الجورب في قدمي اليمنى قد شقه أظفر إصبعي الطويل! أسأل نفسي متى آخر مرة قلمت فيها أظافري؟ أنظر إلى يدي فأجد أظافرها هي الأخرى طويلة! فأشفق على نفسي المسكينة التي لم أفكر فيها حتى صرت شعثاً كرجال الهندوس! بماذا كنت أفكر كل هذه المدة، إذاً؟ الصدق أنني لا أعلم! كل ما أذكره هو أنني كنت مستعجلاً طيلة تلك الفترة!

أتوجه إلى حيث قد يوجد مقص الأظافر فأقلمها، ينتابني

شعور يشبه الذي أشعر به أول يوم في الإجازة! أنظر إلى وجهي في المرآة، فلا يروقني، فأقول لنفسي وما جدوى أن يروقني؟ ثم أسأل نفسي: ما الذي يعجب النساء يا ترى؟ يمضي بعض الوقت وأنا أمام المرآة، أحك رأسي فيباغتني شعور كريه، دائماً ما يأتي ليفسد علي تأملاتي: «ما فيه وقت!! خلصت الشغلة الفلانية؟ كيف ستحل الوضع الفلاني؟»، أتأفف من زحمة الأشياء علي، ألا يحق لي أن أفكر بي ولو للحظة؟

أمشي في ممرات المنزل وأنا أتذكر أمي وهي تخبرني بأن الذي يأكل أظفاره ستكبر في بطنه حتى تخرج منه كقرن الخروف! تمر هالات من أساطير الأولين وكيف كانت حياتهم بسيطة! عندما اشتريت شماغي الأخير كان هناك بضع عشرة تصميم متداول، وكل واحد له شكل مختلف، وعليك أن تعرفها كلها وتعرف أيها موضة هذا العام؟!

وعندما تذهب بشماغك للمغسلة، يسألك العامل: «بمرزام والا بدون مرزام؟» لا يهمني الإجابة بقدر ما أتساءل: من أين أتت كلمة مرزام؟! فأتفف من جديد، وأقول لنفسي: هل يجب عليك أن تفهمي كل شيء؟ بمرزام، ببطيخ، المهم أن لا يبدو شكلي مقرفاً أو مضحكاً!

يا إلهي! كم هو شعور مخيف عندما أجلس أوزع ساعات يومي على الأشياء التي تفتح أفواهها، كل واحدة تريد أن تقضم من عمري قضمة، ويجب علي أن أفعل كل تلك الأشياء لأنني يجب أن أعيش! وعندما أنتهي من ترتيب «الأجندة الحمارية» الكافلة للعيش أتساءل: ما معنى أن أعيش؟ كل شيء في حياتي «مستعجل» أشعر دائماً أنني كذلك!

أعطي الملابس للمغسلة «مستعجل»، وآخذها بعد يومين! أدخل المطعم فأطلب أسرع شيء يمكن تحضيره لأني مستعجل، أركب السيارة و"أعشّق القير» قبل التشغيل لأني مستعجل! أنام فأضبط الساعة بعد ساعة ونصف لأني مستعجل. أخرج من المنزل فلا أغلق الباب لأني مستعجل. حتى ابني الصغير «بكّور» عندما جاء صغيراً دون الوزن الطبيعي قالوا: «شكلك ذيك الليلة كنت مستعجل!».

الحياة تشعرني بالعجلة لكثرة ما تباغتني، الحياة كل يوم تلد لنا «ألف مهمة محتملة» حتى صابونة «بابايا» صار لها خمسة أنواع خلال شهر وينبغي أن أعرفها جيداً لكي لا أعود للصيدلية خمس مرات! حليب ميمونة السيميلاك وجدوا به جناح ذبابة في هيئة الغذاء والدواء ونشروا الخبر، وكان علي أن أعلم به قبل أن يخبرني بذلك الصيدلي وأنا أعطيه الحساب مستعجلاً، ثم

أخرج فتصادفني فتاة عند باب الصيدلية فأعجب بها على طريقة الشعراء «الإلهام التيك أوي»، وأقول فيها بيتين من الشعر في نفسي وأنا متجه للسيارة مستعجلاً!

كلما استيقظت لأنني يجب أن أذهب إلى العمل قبل إقفال دفتر الحضور علمت أنني مستعبد وأنني أحمل في صدري ساعة زرعها غيري تحكمني أكثر مما أحكم أنا نفسي! يضيع نصف اليوم وأنا أمارس ما يطلبه الآخرون وأنفذ ما يمليه علي من له الحق في استهلاك عمري في هذه الفترة من اليوم، ثم أخرج وأنا أفكر فيما تبقى من مهام وفيما سيأتي!

لا تزال «أشياء الآخرين» تلتهم اهتمامي فتضيء الإشارة الضوئية ويبدأ صراخ منبهات السيارات ورائي فأفيق من غيبوبة الالتزامات التي لا ناقة لي فيها ولا جمل فأتدارك المرور إلى الشارع الآخر الذي يمر بالبقالة والمغسلة ودكان الخضار التي أعرفها جيداً فتثير بداخلي تفاصيل أخرى لا تعنيني في شيء!

مكونات الحلوى التي ستصنعها زوجتي لنساء لا يعنينني في شيء، وثوبي الذي يجب أن يكوى لدى المغسلة لكي أقابل به الزملاء غداً في العمل أو أذهب به إلى حفلة صفراء كاذبة! محل الخضار الذي يزودنا بالخضراوات التي ستنتهي إلى القمامة

قبل أكلها لأن أهل البيت ليس لديهم من الوقت ما يكفي لممارسة الحياة الطبيعية! أمر بورشة إلى جانب محطة الوقود فأتذكر أن علي إصلاح سيارتي وكم سيكلفني إصلاحها لكي أذهب بها إلى العمل وأحضر بها المناسبات التي لا أحبها، وأحضر بها الأغراض المنزلية التي لا أحتاجها!

أدخل إلى بيتي، وإذا بكل آلة تفتح فمها كفم القرش الأزرق تريد أن تلتهم حفنة ساعات من عمري، الكمبيوتر والتلفزيون والجوال الذي سأضعه على العام لأبدأ بتأليف الأكاذيب لكل متصل يعتقد أنني قرده الخاص الذي عليه أن يصنع له البهجة والسعادة كلما مل من حياته الباهتة وجلس ينقف أنفه! ولن يمر الوقت الكثير حتى أجد نفسي قد أغمي علي في حالة نوم هي بحد ذاتها وسيلة للقيام باكراً وتكرار ما قد حدث من جديد!

ليت الذين قايضوا أعمارنا بقطع حديد الجوالات والرسيفرات والكمبيوترات والسيارات وكيف نستخدم كل ذلك وكيف نصنعه تركوا لنا شيئاً من أعمارنا ليس داخلاً في الممتلكات المنقولة وغير المنقولة! ليتهم علموا أنهم قتلونا قبل أن يمنحونا الحياة المتحضرة التي يمنّون علينا بها! هذه الحضارة التي حولتني إلى ساعة رملية تتحرك مكوناتها باستمرار لكي

يضبط الآخرون أمورهم ثم يقلبوها على رأسها في كل مرة لتتحرك الرمال من جديد، ولا يهمهم أن تقف هي على رأسها طالما أن ذلك يوفر لهم البقاء على أقدامهم بشكل صحيح!

لا أذكر متى آخر مرة جلست إلى آدمي أتحدث إليه وأنا لا أريد أن أتحدث لأحد سواه! نعيش اليوم وبداخلنا شعور يقول: «أنت في مهمة مستعجلة» فتجدنا متحفزين ومتأهبين ننتظر الأمر والتوجيه أو تجدنا نفكر في الريال والآلة، وقد يتحول حذاء طفل لم يبلغ السنة إلى قضية كفاح ونضال بين شوارع المدينة وأزقة الأسواق فيها.

لقد ضل الإنسان الطريق إلى ذاته «هارباً إلى الخارج» فصار لا يدري ما هو المهم وما هو الأهم، وما الذي يلزمه والذي لا يلزمه، وأرخى وكاء كيس العمر لينتثر هكذا بلا روية ولا حكمة كما ينثر لئام المتصدقين دقل التمر على قارعة الطريق إلى الحرم!

الناس في نظر هذا الإنسان الجديد في صورة رمادية، لا أعداء ولا أصدقاء، ولكنهم «وصلات كهربائية» قد نحتاجهم لتوصيل التيار في يوم ما لأمر ما، لا أكثر!

التورط بالمدنية وبالحياة الاجتماعية التامة هو في الحقيقة

مقبرة الموهبة وبالذات المواهب التي تحتاج إلى تفرّغ وضياع حر! الأشخاص الذين يميلون إلى التحقيق مع الحياة بدلاً من العيش فيها هم آخر من يصلح لمهمة «الحياة الاعتيادية»!

نعم يا فؤاد!....

الحال كما قلت تماماً!!..

ها أنا أقلّم أظفار الحلم ليكون بلبلاً يغرد في قفص!....

ها أنا أزرع في صدري حقولاً شاسعة من «نباتات الظل» التي لا تفكر في الشمس يوماً، أحلم بمفردي وأعيش مع الجميع بقلبٍ تحول إلى «غدّة محتقنة» تتورم كل يوم ولا يعلم بها أحد!..

ذهبت لأحضر الرغيف فأكلني الخبز يا فؤاد!!...

* * *

المركز هو اللا شيء!!

«لا يجب الخلط بين المدينة العظيمة والمدينة العامرة بالسكان!!»

أرسطو

أجلس في بيت الشَّعر في الصحراء لا شيء يراودني عن روحي وعقلي! كل شيء في الصحراء يقول لي: «أنت لك!». الجبال المحيطة بي والمساحات المقفرة حولي تخضع بسكونها المهيب مصغيةً لأي حركة مني! أنا عنصر الحياة الأهم في الصحراء وهذا ما يجعلني مميزاً هنا!

أركب سيارتي وأدور في القفار حولي! لا شيء يعني شيئاً غير نفسه! فالراعي يرعى الغنم، والكلب يحرسها، والشياه تبحث عن العشب لتعيش. لا شيء في الصحراء يحتمل أن يكون أكثر من شيء في الوقت نفسه حتى البشر الذين أراهم يمرون حولي أعرف ماذا يريدون. ليس هنا زور المدينة وفصام أهلها المقيت، حِيلهم ومكرهم ووجوههم الأخرى التي يخفونها ويسيرون في الشوارع كقنبلة موقوتة مخبأة في لعبة أطفال!

في الليل لا شيء يتحدث إلا حطام الهشيم يلتهب في حفرة النار، ولا رائحة تحتل نخاشيش رأسي إلا دخان النار المفعم بالعاديّة والثبات! كلاب تنبح بعيداً بعيداً خَلف الجبل المجاور والسماء صافية والريح شبه ساكنة وأنا كقطرة حبر أزرق اندلَقَت على صفحة بيضاء غير مسطّرة، كل المدى لي، وكل الحرية لي، ولا لون إلا لوني!

تنتهي المدة المحددة للبقاء في الصحراء فأركب سيارتي

لأعود للمدينة! المخيمات المجاورة في العراء البِكر لا شك أنها مخيمات بدو، أعلم تماماً ماذا يصنعون هنا. أمر بسيارتي عليها وأمشي قرابة خمسين كيلو متراً باتجاه الطريق السريع، وكلما اقتربت من المدينة تغيرت الأشياء! على مشارف المدينة بيوت شعر وخيام، ولكن يا ترى لماذا نُصِبت؟! أهي للدعارة أم لتخزين المخدرات أم لممارسة السكر أم هي للنزهة؟! نعم! هذه هي المدينة. كل شيء حين يقترب منها يتشظى ويتحول إلى أشياء كثيرة!

كلما اقتربت من مركز المدينة فقدت الأشياء ثباتها في عيني. الناس هنا مذاهب شتى، وأنواع البشر هنا أكثر من أنواع السمك في المحيط! أنا الآن لا شيء! أنا الآن حشرة صغيرة في مستنقع مليء بالحشرات! أنا الآن هاجس وحيد خائف، هو هاجس القدرة على البقاء! أنا الآن مركز كبير للتسوق، كُتب فوق مدخله «كل شيء بريالين!»، مكتظ ومتنوع وتافه!

أنا الآن في مركز المدينة!!...

لا أدري لماذا كلما خنقتني ضوضاء المدن تذكرت الروائي المشهور باولو كويلو الذي كان مدمناً وحبيساً في مستشفى الأمراض العقلية لمرتين، حيث أودعه أبوه هناك. كويلو التحق بالمذهب الهيبي، وكتب القصائد للفرق الغنائية، وقرأ في الفلسفة

والتاريخ، وفي نهاية الأمر تعلم السحر!

بعد أن قرأت روايته الشهيرة **الخيميائي** التي وزع منها أكثر من مائة وخمسين مليون نسخة بمختلف اللغات، أدركت أن هذا الرجل لديه صفاء ذهني واضح لا يتناسب مع تاريخه المضطرب.

قرأت مذكرات كويلو، **مذكرات مسافر حاج**، ولمست كم جاهد ليتخلص من حالة التشتت الذهني التي كان يعيشها، وذكر أن ما توصل إليه كان قناعة شخصية أكثر منه أي شيء آخر. ذكر في مذكراته قصيدة تقول ترجمة بعض ما جاء فيها: «الإطار الفارغ الذي أوصلك لهدفك البعيد لم يكن ليوصلك لو لم يكن محشواً بالفراغ!». نعم، هذه هي الفلسفة الشخصية التي توصل إليها بعد طول صراع. فلسفة أنك كلما أفرغت نفسك من الداخل من زحام الأفكار والحياة، كلما استطعت أن تجد نفسك أكثر.

يخدعنا تنوّع الحياة كثيراً، ويوهمنا أنه هو الثراء، ولكن حين نتورط فيه نجد أننا نعيش في شتات داخلي لا هدف له سوى التنقل التائه من اهتمام إلى آخر. هذا هو الثراء الفارغ، أن تكون محشواً كمخزن منزل رجل عازب بكل شيء تحتاجه، أو لا تحتاجه وحين تحتاج شيئاً ما بعينه ستبحث عنه ولن تجده!

في الحقيقة لا يمكن للإنسان أن يعيش كل أدوار البشر، ولا أن يمارس كل اهتمامات الحياة، والذين يحددون أهدافهم ويعيشون لأجلها هم وحدهم من يشعرون بأنهم يتحركون ويتطورون بشكل يجلب الطمأنينة والثقة في النفس. هذا هو الفراغ الثري، أن يكون بداخلك من الفسحة ما يكفي للشعور بالهدوء وتمييز قناعاتك وترتيبها ومراقبتها والاعتناء بها براحة وطمأنينة.

الفوضى الخلاّقة قد تكون نظرية منتجة على مستوى المجتمع ولكنها في «الداخل النفسي» لن تكون إلا فوضى مدمرة يقتل بعضها بعضاً. المدن بورصات كبيرة لرؤوس البشر! هي تعاملنا كذلك ونحن نشعر فيها بأننا كذلك! تذبذب واضطراب وتوتر يترقب باستمرار!

ثم أعود لتلك القصيدة من جديد أدندن بها....

: «الإطار الفارغ الذي أوصلك لهدفك البعيد...

لم يكن ليوصلك لو لم يكن محشواً بالفراغ!»....

ولكن قلب المدينة لا يسمع!!

* * *

هذا الرويلي، جميل من آصدقائنا..
إنه يثير الشك كما ينبغي
من حوله وحولنا.
وفي ذاكرته العشوائية
سنجدنا جميعا، حول قلمه

علي الظفيري



كاتب و مذيع سعودي

رجل من يحب الحقيقة ويبحث عنها ليراها كما هي دون رتوشها
وكلما كتب حرفاً نزع عنها قطعة من ثيابها..!
جميل.. كان لابد أن يكون كاتباً رائعاً ومفكراً جميلاً، لأنه يستحق
أن يكون كذلك، ولكي يكون له من اسمه نصيب..!

سهيل اللياني
أبو عبدالله كما تقول أم شاعة



كاتب سعودي

SR35

ISBN 978-614-428-076-8
9 786144 280768

منتدى المعارف
بناية «طبارة» - شارع نجيب العرداتي - المنارة - رأس بيروت
ص.ب: ٧٤٩٤ - ١١٣ حمرا - بيروت ١١٠٣٢٠٣٠ - لبنان
هاتف: ٧٣٩٨٧٧ (١-٩٦١)
فاكس: ٧٣٩٨٧٨ (١-٩٦١)